

غازي عبد الرحمن القصيبي

من هم الشعراء الذين يتّبعهم الغاوون؟

دار الساقي

غازي عبد الرحمن القصيبي

من هم الشعراء الذين يتَّبعهم الغاوون؟



دار الساقي

الطبعة الثانية ١٩٩٤

ISBN 1 85516 895 2

بناية تابت، شارع امين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب : ١١٣/٥٣٤٢ بيروت – لبنان
هاتف : ٣٤٧٤٤٢ (٠١) : فاكس : ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI

London Office : 26 Westbourne Grove, London W2 5RH, Tel: 071-221 9347 ; Fax : 071-229 7492

إلى صديقي الكريم الدكتور عبد اللطيف جاسم كانو
تحية لجهوده الرائدة في إنشاء
"بيت القرآن" في البحرين

مدخل

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَالشُّعَرآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُنَ • أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ • وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ • إلاَّ ٱلَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[1]

منذ أن أُنزلتْ هذه الآيات الكريمة من سورة الشعراء وإلى يومنا هذا، لا أظن أن شاعراً عربياً واحداً لم يسمع من الآخرين، على سبيل الغمز واللمز غالباً، أنه يقول ما لا يفعل. ولا أحسب أن شاعراً عربياً واحداً لم يقل للآخرين بدوره، على سبيل العذر والتبرير غالباً، إنه يقول ما لا يفعل. فإذا صحّت هذه الملاحظة، وليس هناك من وسيلةٍ للتثبّت من صحّتها، كان معناها أن ثمة تفاهماً غير مكتوب بين الشعراء وغير الشعراء على أنه يحقّ للشعراء، دون غيرهم من البشر، أن يكذبوا. ولا اعتراض لديّ على مثل هذا التفاهم، إن وجد. اعتراضي أن يستند تفاهم

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

كهذا إلى آيات من كتاب الله الحميد، فليس في الكتاب الحميد ما يجيز لأحد، شاعراً كان أو ناثراً، أن يكذب.

يُروى أن سيدنا عمر بن الخطاب استعمل شاعراً، اسمه النعمان بن فضلة، على ميسان من نواحي البصرة. وما إن استقرّ صاحبنا في مكان عمله حتى أرسل رسالتين شعريتين استفزازيتين إحداهما إلى زوجته، وهذه أمرها يهون، والأخرى إلى رئيسه، أمير المؤمنين، وهذه أمرها أصعب، يصف مشهداً شبيهاً بما يدور في المحلات التي يطلق عليها هذه الأيام اسم «علب الليل»:

فمَنْ مبلغُ الحسناء أَن حليلَها ... بميسان يُسقى في زجاج وحنتم[1]
إذا شئتُ غنتني دهاقين قريةٍ ... ورقّاصة تجذو على كل منسمِ[2]
فإن كنتَ ندماني فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلّمِ
لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق المتهدمِ[3]

ولا يسجّل لنا التاريخ ما فعلت الحسناء بعد استلام رسالة حليلها، إن كانت قد فعلتْ شيئاً، ولكنه يسجل لنا ما فعل أمير المؤمنين الذي ساءه ما سمع، فقد استدعى العامل الشاعر وعزله من عمله. وتضيف الرواية أنه درأ عنه الحدّ لاعتذاره بالآية الكريمة التي تصف الشعراء بأنهم يقولون ما لا يفعلون.

كما يُروى أن الفرزدق أنشد سليمان بن عبد الملك قوله:

---

(١) الحنتم: الجرّة.

(٢) أي ترقص على أطراف أقدامها. والدهاقين: كبار المزارعين.

(٣) الجوسق: القصر.

فبتن بجانبيَّ مُصرَّعاتٍ وبتُّ أفضُّ أغلاق الختام[1]

فقال له الخليفة «قد وجب عليك الحدّ!» فردّ الشاعر: «يا أمير المؤمنين! قد درأ الله عني الحدّ بقوله **﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾**[2]».

ويروي الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «إن العلماء اختلفوا إذا اعترف الشاعر في شعره بما يستوجب حدًّا، على قولين: أحدهما: أنه يقام عليه الحدّ لأنه أقرّ به، والإقرار تثبت به الحدود. وثانيهما: أنه لا يُحدّ بإقراره في الشعر لأن كذب الشاعر في شعره أمر معروف معتاد واقع لا نزاع عليه».

ويضيف أنه يؤيد رأي الفقهاء الذين يدرأون الحدّ عن الشعراء[3]. ويبدو أن كفة هذا الرأي هي التي رجّحت إذ إننا لم نسمع بحدود أقيمت على الشعراء بناءً على أشياء وردت في شعرهم.

ولي تعليق بسيط على قصة الشاعرين مع سيدنا عمر ومع سليمان بن عبدالملك. لقد تبجّح عامل ميسان، وهو بلغة اليوم موظف عام، علناً بأنه يعمل ما يسوء رئيسه. وهذا التبجّح، سواء كان كاذباً أو

---

(١) لم أعثر على هذا البيت في ديوان الفرزدق الذي تضمه مكتبتي، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ولعله سقط سهواً، أو لعل الشاعر قرر حذفه بعد الحادثة إيثاراً للسلامة.

(٢) انظر القصتين، في القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**. وسنكتفي في كتب التفسير المشهورة بالإشارة إلى اسم الكتاب والسورة، ونثبت بقية التفاصيل في قائمة المراجع.

(٣) محمد الأمين الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** (الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م) الجزء السادس، ص ص ٣٩٠ - ٣٩١ (لم يذكر مكان الطبع).

صادقاً، وسواء كان شعراً أو نثراً أو سجعاً، يكفي، في نظري، لإقالة المتبجّح، وهذا ما فعله سيدنا عمر. كان القرار، على ما أتصوّر، قراراً إداريًا ولم يكن قضاءً شرعيًا. أما بيت الفرزدق فالصورة الواردة فيه موغلة في الخيال الخصب الواسع، حتى لتكاد تذكرنا بمبالغات «أبو لمعه». أحسب الخليفة كان يمازحه، وأشك أنه كان على وشك إقامة الحدّ عليه.

كما أن لي تعليقاً على مباحث الفقهاء الأجلاّء حول إقرار الشاعر باقتراف ما يوجب الحدّ في شعره. لقد وضع الفقه الإسلامي للإقرار الذي يؤدي إلى تطبيق الحد العديد من الضوابط، تستهدف كلها درء الحدود بالشبهات وذلك صوناً للحقوق وضمانة للعدالة وحماية للبريء. في الإقرار بالزنا، على سبيل المثال، اشترط الفقهاء أن يتكرّر الإقرار «أربع مرّات». كما اشترطوا أن يتضمّن «حقيقة الفعل لتزول الشبهة لأن الزنا يُعبّر عما ليس بموجب للحدّ». وكذلك اشترطوا أن يكون الإقرار من «بالغ صحيح عاقل». فإن أقر بالزنا وهو سكران لم يعتبر إقراره لأنه لا يدري ما يقول. وقالوا إنه «لا يصحّ الإقرار من المكره». واشترطوا أيضاً أن يبقى على إقراره لا ينزع عنه حتى تمام الحدّ[1]. وتطلّب الفقهاء، في إقرار السارق، أن «يتكرّر مرتين». كما تطلبوا أن يتضمن الإقرار «شروط السرقة من النصاب والحرز وإخراجه منه». وكذلك تطلّبوا «ألا ينزع عن إقراره حتى يقطع». وأجازوا «تلقين السارق ليرجع عن إقراره»[2]. وإنه لشعر عجيب حقًّا هذا الذي تتوفر فيه شروط الإقرار هذه، كلها أو بعضها.

---

(١) انظر ابن قدامه، **المغني**، (القاهرة: مطبعة العاصمة) ص ص ٣٤ ـ ٣٩ (لم يذكر تاريخ الطبع).

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ص ١١٥ ـ ١١٧.

إن الشعر لا يصلح إقراراً شرعيًا لا لأن الشاعر صادق أو كاذب بل لأن طبيعة الشعر وأسلوبه وخياله وصوره تجعل روحه ولغته بعيدة كل البعد عن روح الإقرار الشرعي ولغته. وعن لغة الشعر يقول ابن العربي رحمه الله: «أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحدّ وتجاوزت المعتاد»[١]. ويقول العلامة القرطبي رحمه الله في معرض تعليقه على قصيدة كعب بن زهير الخالدة «بانت سعاد» أن النبي ﷺ كان «يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح»[٢].

على أن تعليقي هذا، كائناً ما كان نصيبه من الصحة، لا ينفي أن الشعراء، أو عدداً كبيراً منهم على أية حال، رأوا أن الآية الكريمة التي تصف الشعراء بأنهم يقولون ما لايفعلون تنطبق عليهم. كما أن الفقهاء الكرام الذين بحثوا المباحث التي ألمحنا إليها في إقرار الشاعر وانتهوا إلى درء الحدّ عن الشاعر قد اعتمدوا على الآية الكريمة نفسها. وفي أيامنا هذه لا يزال عامة الناس وخاصتهم يصفون الشعراء بأنهم يقولون ما لا يفعلون مستندين، بدورهم، إلى الآية الكريمة ذاتها.

هل هذه الآيات التي تتحدث عن الشعراء تنطبق على الشعراء جميعاً بحيث لا يستثنى منهم أحد إلا من استثنته الآية الأخيرة وبالشروط المنصوص عليها في الاستثناء، كما رأى بعض من بحثوا الموضوع وتأمّلوه؟ أم أن الآيات الكريمة تتحدّث عن شعراء بعينهم، حاربوا الله ورسوله قولاً وفعلاً، وأن الاستثناء إنما يؤكد أن هؤلاء الشعراء هم المقصودون، كما يرى بعض من بحثوا الموضوع وتأمّلوه؟

---

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير سورة الشعراء.

(٢) المرجع السابق نفسه.

بالإمكان أن نطرح السؤال على نحو آخر: هل للإسلام موقف مناهض للشعر، من حيث هو شعر، وللشعراء، من حيث هم شعراء، باستثناء شعر معيّن لشعراء معينين تتوفر فيهم شروط معيّنة؟ أم أن موقف الإسلام من الشعر، من حيث هو شعر، ومن الشعراء، من حيث هم شعراء، لا يتصف بأي نوع من أنواع العداء باستثناء شعر كافر لشعراء كفّار هجوا الرسول وحاربوا الدعوة؟ أجد نفسي بعد دراسة لا تخلو من تأمّل وتمعّن لما كتبه نوابغ مفسّرينا عبر التاريخ مطمئنًّا إلى أن المعنى الثاني هو الأقرب إلى روح الإسلام، وهو المعنى الذي تلهمه القراءة الفاحصة المستقصية.

غير أنني قبل أن أنتقل إلى المبرّرات التي ينهض عليها الفهم الذي رجّحتهُ أحب أن أقف قليلاً عند اعتراض سمعته كثيراً. الاعتراض مبني على القاعدة الشهيرة في علم أصول الفقه «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». يقول الاعتراض ما دامت كلمة الشعراء قد وردت عامة مطلقة فيجب أن تسري على الشعراء عامة ومطلقاً. وأنا لا أجادل هنا في صحة القاعدة، وهي ذات نفع كبير في فهم النصوص، إلا أني أجادل في مدى انطباقها على الحالة التي نحن بصددها. إن كلمة الشعراء وردت متبوعة بصفات لا تنطبق على كل الشعراء، الأمر الذي يصعب معه القول إنها وردت عامة. كما أنها وردت متبوعة باستثناء واضح، الأمر الذي يصعب معه القول إنها وردت مطلقة. وعلاوة على ذلك ففي أسلوب البلاغة القرآنية «عام يراد به خاص». ويورد العلامة ابن قتيبة، رحمه الله، عدة أمثلة على ذلك كقوله سبحانه وتعالى حكاية عن النبي ﷺ ﴿**وأنا أول المسلمين**﴾[1]، وأراد مسلمي زمانه. وكقوله

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٣.

سبحانه وتعالى ﴿**قالت الأعراب آمنّا**﴾[1] وإنما قال ذلك فريق من الأعراب. ويذكر ابن قتيبة، الآية التي نحن بصددها فيقول: «ومن العام المراد منه خاص قوله تعالى ﴿**والشعراء يتّبعهم الغاون**﴾ ولم يرد كل الشعراء»[2].

ليست، ثمّة، سبب أصولي يدفعنا إلى القول إن الشعراء موضوع البحث هم الشعراء قاطبة، الأمر الذي يسمح لنا أن ننتقل خطوة أخرى فنتساءل، من هم، إذن، هؤلاء الشعراء؟!

قبل أن نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال، وما يحيط به ويتلوه من أسئلة، يحسن أن نستعرض موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء لنتبيّن ما إذا كانت آياته الكريمة تحتوي على عداء جلي أو خفيّ للشعر والشعراء. ويحسن بعدها أن ننتقل لنرى الموقف من الشعر والشعراء في السنة النبوية المطهرة. وننهي جولتنا بطائفة من آراء السلف الصالح في الشعر. لعلنا بعد هذه الجولة نكون قد وضعنا أيدينا على المفتاح الذي يسهّل لنا فهم الآيات الأربع الكريمة من سورة الشعراء.

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٤.

(٢) ابن قتيبة، **تأويل مشكل القرآن**، (القاهرة: دار التراث العربي، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م)، ص ٢٨١.

الشعر والشعراء في القرآن الكريم

كل ما ورد في القرآن الكريم عن الشعر والشعراء، دون استثناء، يستهدف شيئاً واحداً هو تكذيب المشركين في دعواهم أن القرآن شعر، وأن النبي ﷺ شاعر. فقد وردت كلمة الشعر في القرآن الكريم، لأول مرة، في سورة يٰس: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[1]. ثم ورد ذكر الشعراء في الآيات الأربع موضوع البحث، وسنرى أنها هنا وردت للهدف ذاته. ثم جاءت كلمة شاعر في سورة الصافات: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ ودفعت السورة هذه الفرية البذيئة: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]. ثم وردت الكلمة في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ ويجيء الرد: ﴿مَا ءامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾[3]. ثم جاءت الكلمة في سورة الطور مقرونة بتهديد من المشركين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾. وجاء التحدي: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا

---

(١) سورة يس، الآية ٦٩.

(٢) سورة الصافات، الآيتان ٣٦ و٣٧.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان ٥ و٦.

﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾[١]. ثم وردت الكلمة في سورة الحاقة تجمل الموقف القرآني الذي استعرضناه[٢]: **﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قليلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾**[٣].

رغم أن قريش كانت على جحودها الظاهر مدفوعة بشيء يشبه الإعجاب الخفي بالقرآن عندما سمّته شعراً، ورغم المكانة الهائلة للشاعر في المجتمع الجاهلي، فقد كان موقف القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى حاسماً جليًّا قاطعاً: القرآن ليس بشعر؛ وصاحب الدعوة ﷺ ليس بشاعر. كان لا بدّ من إيضاح الأمور منذ البداية حتى لا تغيم الرؤية وتختلط الأدوار. يقول سيد قطب رحمه الله:

> والرسول، ﷺ، لا يقول اليوم قولاً ينقضه غداً، ولا يتّبع أهواء وانفعالات متقلّبة، إنما يصرّ على دعوة ويثبت على عقيدة، ويدأب على منهج لا عوج فيه. والشعراء ليسوا كذلك، الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلّبة، تتحكم فيهم مشاعرهم ثم هم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال[٤].

هذا وقد كان سيد قطب، في بداية حياته الأدبية على أية حال، شاعراً مطبوعاً، فهو يتكلم عن مزاج يعرفه. إلا أن نفي صفة الشاعر عن الرسول ﷺ ، وصفة الشعر عن كتاب الله الحميد لا تعني أي عداء

---

(١) سورة الطور، الآيتان ٣٠ و٣١.

(٢) اعتمدنا في ترتيب نزول السور على الزركشي **البرهان في علوم القرآن**، (بيروت: دار المعرفة: ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م) الجزء الأول، ص ١٩٣.

(٣) سورة الحاقة، الآية ٤١،

(٤) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (بيروت: دار الشروق، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، المجلد الخامس، ص ٢٦٢١.

للشعر. يقول سيد قطب:

> ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ. إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن... ولقد وجّه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون، وإلى خفايا النفس البشرية، وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن[1].

وفي الموضوع ذاته يقول محمد قطب: «إن الآيات التي وُجّهت للشعراء العرب في الجاهلية لم توجّه ضد الشعر في ذاته. ولا وُجّهت ضدّ الشعراء على إطلاقهم. وإنما ضدّ نوع معين من الشعراء»[2].

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (بيروت: دار الشروق، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، المجلد الخامس، ص ٢٦٢٢.

(٢) محمد قطب، **منهج الفن الإسلامي**، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)، الطبعة السابعة، ص ١٣٩.

الشعر والشعراء في السنة النبوية

صحّت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في الشعر نكتفي بإيراد بعضها. عن أبيّ بن كعب رحمه الله (أنه ﷺ قال: «إن من الشعر حكمة») [أخرجه البخاري وأبو داود]. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (جاء إعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام فقال «إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حكماً») [أخرجه الترمذي وأبو داود][1].

وعن عائشة، رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يضع لحسّان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ، أو ينافح، ويقول رسول الله ﷺ «إن الله يؤيّد حسّان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ» [أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي واللفظ للترمذي]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (مرّ عمر بحسان وهو ينشد في المسجد فلحظ إليه شزراً فقال: «قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك»، ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: «أنشدك الله

---

(١) راجع الأحاديث الكريمة التي استشهدنا بها في المتن وغيرها مما يتعلق بالشعر في ابن الأثير الجزري، **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، (بيروت: مكتبة حلواني، مطبعة الملاح، مطبعة دار البيان، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م)، الجزء الخامس، ص ص ١٦٣ - ١٨١.

أسمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني، اللهم أيِّده بروح القدس؟». فقال «اللهم نعم») [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي واللفظ للشيخين]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبدالله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلّوا بني الكفارِ عن سبيلهِ اليوم نضربكم على تنزيلهِ
ضرباً يزيل الهام عن مقيلهِ ويذهل الخليل عن خليلهِ

فقال عمر «يا ابن رواحة! بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟» فقال رسول الله ﷺ «خلّ عنه يا عمر. فلهي أسرع فيهم من نضح النبل» [أخرجه الترمذي والنسائي][١].

وعن عمرو بن الشريد بن سويد الثقفي عن أبيه (ردفت رسول الله ﷺ فقال «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟» فقلتُ «نعم» قال «هيه». فأنشدته بيتاً. فقال «هيه». ثم أنشدته بيتاً، فقال «هيه» حتى أنشدته مائة بيت) [أخرجه مسلم]. وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه (جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، وربما تبسّم معهم) [أخرجه الترمذي]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطلُ» [أخرجه البخاري ومسلم]. وعن عائشة رضي الله عنها عندما سؤلت إن كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشعر قالت: (كان يتمثل بشعر ابن رواحة، ويتمثل ويقول: «يأتيك بالأخبار من لم تزوّد») [أخرجه الترمذي].

---

(١) نلاحظ في هذا الحديث وما سبقه أن اعتراض سيدنا عمر كان منصباً على مكان الإنشاد ـ المسجد ـ لا الشعر في حد ذاته.

ولا أودّ أن أستشهد بما صحّ عنه ﷺ من كلامٍ يشبه الرجز كقوله عندما جرحت إصبعه:

ما أنتِ إلا إصبعٌ دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

أو كقوله:

أنا النبيّ لا كذبْ أنا ابن عبد المطّلبْ

ذلك أنني لا أعدّ هذا شعراً وأذهب مذهب الذين يعتبرونه «من المنثور الذي يوافق المنظوم، وإن لم يتعمّد به قائله المنظوم ومثل هذا من كلام الناس كثيرٌ يأخذه الوزن»[1].

في مواجهة هذه الآثار الصحيحة، وكلها تشيد بالشعر على نحو أو آخر، صحّ خبر عن الرسول ﷺ يوحي ظاهره بذمّ الشعر، ولهذا تضعه كتب الحديث أحياناً في «فصل ذم الشعر»، وإن كان المحققون من العلماء رجّحوا أن المذموم في الحديث غلبة الشعر على المرء لا الشعر نفسه. قال ﷺ «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه[2] خير له من أن يمتلىء شعراً»[3] [أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي]. يعلق المحدّث المحقّق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني على هذا الحديث فيقول «المراد أن يكون الشعر غالباً عليه بحيث يشغله عن القرآن والحديث وغيرهما من

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م)، الجزء الخامس، ص ٢٨٣.

(٢) يرى الجوف أي يفسده ويمرضه.

(٣) تضيف بعض الروايات شعراً «هُجيتُ به». ولكن صيارفة الحديث لايعتدون بهذه الزيادة.

العلوم الدينية»[1]. ويعلق عليه القرطبي فيقول:

> أحسن ما قيل في تأويله: إن الذي غلب عليه الشعر وامتلأ صدره به دون علمٍ سواه ولا شيء من الذكر، ممن يخوض به في الباطل ويسلك مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول، ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنيّة، لحكم العادة الأدبية[2].

وصحّ عنه ﷺ حديث مشابه مع زيادة لم ترد في الأول. عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: (بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ «خذوا الشيطان» أو «أمسكوا الشيطان» لأن يمتلىء جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً») [أخرجه مسلم والنسائي]. ويعلق القرطبي على هذا الحديث فيقول:

> قال علماؤنا وإنما فعل النبي ﷺ هذا مع الشاعر لما علم من حاله - فلعلّ هذا الشاعر كان ممن قد عُرف من حاله أنه اتخذ الشعر طريقاً للتكسب فيفرط في المدح إذا أعطيَ وفي الهجو والذمّ إذا مُنِعَ فيؤذي الناس في أعراضهم وأموالهم[3].

هذه، إذن، سنته ﷺ في الشعر يلخّصها مصطفى صادق الرافعي فيقول: «يحبّ هذا الشعر، ويستنشده، ويثيب عليه، ويمدحه متى

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني، **مختصر صحيح مسلم**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، ص ١٢٠٨.

(٢) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير سورة الشعراء.

(٣) المرجع السابق نفسه.

كان في حقه ولم يعدل به إلى ضلالة أو معصية»[١]. والغريب أنه برغم هذا الموقف الجليّ الذي تعكسه الأحاديث الصحيحة فقد تبنّى عدد من المستشرقين فكرة مؤدّاها أن النبي ﷺ كان طيلة حياته على عداء مستحكم مع الشعر والشعراء[٢]. ولم تكن هذه الفكرة موضوعية بل كانت مبنية على اعتقادهم أن القرآن من «نظم» محمد ﷺ، وأنه كان بالتالي يشعر بعداء شديد نحو «منافسيه» من الشعراء. إن هذا الرأي أوهى من أن نقف عنده طويلاً. ويكفي أن نذكر ما قاله الرافعي من أنه لو لم يكن للرسول موقف إيجابي من الشعر «لماتت الرواية بعد الإسلام»[٣].

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، (بيروت: دار الكاتب العربي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، الطبعة التاسعة، ص ٢١٣.

(٢) انظر، على سبيل المثال، محمد مصطفى هدّارة «موقف مرغليوث من الشعر العربي» في **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية**، (الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، ص ص ٣٩٥ - ٤٣٨. وانظر، على سبيل المثال أيضاً:

J.M. Rodwell, *The Koran*, (London: Everyman's Library, 1978), p. 111.

(٣) الرافعي، **إعجاز القرآن**، ص ٢١٣.

الشعر والشعراء في أقوال السلف الصالح

لا يتّسع المجال هنا إلا لخطفة عابرة فالآثار الواردة في هذا الشأن تحتاج إلى مجلد أو مجلدات. وحسب من يريد الاستزادة أن يرجع إلى الفصل الضخم الذي عقده صاحب **العقد الفريد** للشعر وأسماه «في فضائل الشعر ومخارجه»(١). يقول الجاحظ: «وجدنا الشعر، من القصيد والرجز، قد سمعه النبي ﷺ فاستحسنه، وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله ﷺ قد قالوا شعراً قليلاً كان أو كثيراً واستمعوا واستنشدوا»(٢). ويقول القرطبي: «إذا كان رسول الله ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا؟». ويضيف «ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أهل النهى». ويروي أنه «ليس من أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر أو تمثّل به أو سمعه»(٣).

ينسب الجاحظ إلى العائشي قوله «كان عمر بن الخطاب، رحمه

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، المجلد الخامس، ص ص ٣٩٥ ـ ٤٣٨.

(٢) الجاحظ، **البيان والتبيين**، (بيروت: محمد فاتح الداية)، الطبعة الرابعة، الجزء الأول، ص ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

(٣) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير سورة الشعراء.

الله، أعلم الناس بالشعر»[١]. ويروى عن محمد بن سلام أنه قال: «كان عمر بن الخطاب لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر»[٢]. والأقوال المنسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنه في الشعر لا تكاد تحصى، وقصصه مع الشعراء تطول. ونُقل عن سعيد بن المسيب قوله: «كان أبو بكر شاعراً، وعمر شاعراً، وعلي أشعر الثلاثة»[٣]. وقد استقصى صاحب **العقد الفريد** في المبحث الذي أشرنا إليه عدداً كبيراً ممن قالوا الشعر من الصحابة والتابعين وأجلاّء الفقهاء والقضاة.

---

(١) الجاحظ، **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص ٢٣٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، المجلد الخامس، ص ٢٨٣. الروايات عن شاعرية سيّدنا علي متواترة، بصرف النظر عن الزيادات المنسوبة إليه، أما سيدنا عمر فلم يحفظ له شعر، وأما سيدنا أبو بكر فقد نُسب إلى عائشة رضي الله عنها قولها «ما قال بيت شعر في جاهلية ولا إسلام» انظر الصنعاني، **المصنف**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، الجزء الحادي عشر، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

موقف الإسلام من الشعر

أحسب أن من حقّنا بعد هذه الجولة المباركة في آيات القرآن المجيد والسنة النبويّة المطهرة وأقوال خيار الأمة أن نحدّد موقف الإسلام من الشعر، فنقول، إن الموقف من الشعر يعتمد على طبيعة الشعر. الإسلام يُبيح الطيّبات، ويحرّم الخبائث، والشعر الطيّب يدخل، دون جدل، في دائرة المباح، أما الشعر الخبيث فمرفوض مع بقية الخبائث. ولعل عبارة واحدة لا تلخّص موقف الإسلام من الشعر بالدقة والوضوح اللذين يتجلّيان في العبارة المشهورة: «الشعر كلام فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام».

ارتاح الفقهاء والعلماء إلى هذه المقولة وأنسوا بها معياراً للحكم على الشعر. ومن هنا نرى الجملة تتكرّر، المرة تلو المرة، كلما دار بحث فقهي في الشعر. نجدها على سبيل المثال في **الكشّاف** للزمخشري[1]. ونجدها في **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي[2]. ونجدها في أقوال المفسّرين المعاصرين، كما نجدها في أقوال أسلافهم. يقول محمد سيد

(١) تفسير سورة الشعراء.

(٢) تفسير سورة الشعراء.

طنطاوي في **التفسير الوسيط** «إن الشعر ذاته كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح»[١]. ونجد صدى منها في تفسير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور «أن للشعر حالتين: حالة مذمومة وحالة مأذونة»[٢]. ونجدها واردة بحسم ما بعده حسم في أقوال مفسر معاصر يعتبر الأمر منتهياً بها «واعلم أن التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه أن الشعر كلامٌ حسنه حسن وقبيحه قبيح»[٣].

لا يبدو أن أحداً يعرف على وجه التحديد من صاحب هذه المقولة التي أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من تراثنا الشعري. هناك رواية ترفعها إلى النبي ﷺ، إلا أن هذه الرواية موضع نظر ولا يصحّ الركون إليها[٤]. وهناك روايات تنسب العبارة إلى غيره ﷺ[٥]. والمتعارف المشهور أنها للإمام الشافعي، رحمه الله، فإن لم يكن هو أول من قالها فلعلّه أول من توسّع في شرحها وتفصيلها.

وردت العبارة في مبحث فقهي طريف للإمام الشافعي ناقش فيه موضوع «هل تقبل شهادة الشعراء أمام القضاء؟». وقد بدأ الشافعي فأوضح الموقف العام من الشعر: «الشعر كلام حسنه كحسن الكلام

(١) محمد سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)، الطبعة الثالثة، الجزء الثامن عشر، ص ٣٨١.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م)، الجزء التاسع عشر، ص ٢١١.

(٣) الشنقيطي، **أضواء البيان**، الجزء السادس، ص ٣٦٠.

(٤) انظر المناوي، **فيض القدس: شرح الجامع الصغير**، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م)، المجلد الرابع، ص ١٧٥.

(٥) ينسبها القرطبي في **الجامع لأحكام القرآن**، إلى ابن سيرين، وينسبها البغوي في **معالم التنزيل**، إلى عائشة رضي الله عنها.

وقبيحه كقبيح الكلام. غير أنه كلام باق سائر فذلك فضله على الكلام».

ثم تكلّم على الشعراء المعتدلين في قدحهم ومدحهم: «فمن كان من الشعراء لا يُعرف بنقص المسلمين ولا أذاهم والإكثار من ذلك، ولا بأن يمدح فيكثر الكذب فلا ترد شهادته». ثم يتكلم على الهجّائين المفرطين في البذاءة وثلم الأعراض، وهؤلاء الشعراء نكبة الشعر العربي الأولى عبر تاريخه ونحمد الله على أنهم ينقرضون تدريجيًا، وعن المدّاحين المبالغين في المدح، وهؤلاء الشعراء نكبة الشعر العربي الثانية وهم يتناقصون بعض الشيء دون أن تبدو منهم أية نزعة نحو الانقراض، فيقول:

> ومن أكثر الوقيعة في الناس على الغضب أو الحرمان حتى يكون ذلك ظاهراً كثيراً مستعلناً. وإذا رضي مدح الناس بما ليس فيهم حتى يكون ذلك ظاهراً مستعلناً كذباً محضاً، رُدّت شهادته، وإن كان يمدح فيصدق ويحسن الصدق أو يفرط فيه بالأمرالذي لا يمحض أن يكون كذباً لم ترد شهادته.

وماذا عن الشعراء المشبّبين بنساء الآخرين، أزواجاً أو بناتٍ أو أمهات، المولعين بفضيحتهن وهم النكبة الثالثة في الشعر العربي؟ يقول الإمام:

> ومن شبّب بامرأةٍ بعينها، ليست ممن يحلّ له وطؤها حين شبب، فأكثر فيها وشهرها وشهر مثلها بما يُشبّب، وإن لم يكن زنى، رُدّت شهادته.

وماذا عن المتغزّلين دون فضائح، وهم، على أية حال، ليسوا من نكبات الشعرالعربي؟ يقول الشافعي: «ومن شبّب فلم يُسمّ أحداً لم تُردّ شهادته لأنه يمكن أن يشبّب بامرأته أو جاريته»[1].

---

(١) الشافعي، **كتاب الأم**، (بومبي: أبناء مولوي محمد بن غلام رسول السورتي)، الجزء السادس، ص ٢١٢. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

أحسب أن هذه الصياغة الدقيقة الرقيقة، وقد جاءت دقتها من فقه الإمام ورقتها من شاعريته، تصلح معياراً للتفرقة حتى في أيامنا هذه بين ما يستحسنه الشرع وما لا يستحسنه من شعر.

يمكننا القول، إذن، إن كل شعر لا يرفضه الإسلام هو، في نهاية المطاف، شعر إسلامي. إلا أنه كانت هناك دائماً فئة من الناس تودّ حصر دائرة الشعر الإسلامي في شعر الجهاد والدعوة. ونحن نُسلّم أن لشعر الجهاد والدعوة من نبل المقصد وسمو الغاية ما ليس لغيره. إلا أن نبل المقصد وسمو الغاية لا يضمنان روعة الشعر. على شعر الجهاد والدعوة أن ينجح في امتحان الفن شأنه شأن غيره من ضروب الشعر. بل إن على شعر الجهاد أن يجتاز امتحاناً ثانياً هو امتحان الفعالية. لا بدّ لشعر الجهاد أن يستنهض همم المجاهدين ويثبط عزائم المناوئين، أن يكون وقعه على الأعداء «كنضح النبل» كما تقول الجملة النبوية الخالدة. أما شعر الجهاد الذي لا يحرّك مجاهداً ولا يرعب عدوًّا، فيبقى لصاحبه ثواب نواياه، يعلمها العليم الذي لا تخفى عليه خافية، ويبقى لنا جماله، إن كان من الشعر الجميل.

إن تضييق دائرة الشعر الإسلامي، حتى يصبح مقصوراً على موضوعات محدّدة بعينها لا يتجاوزها تضييق يتنافى مع الفهم الصحيح لروح الإسلام وموقفه من الفن عامة، ومن الشعر خاصة، وفي هذا يقول سيد قطب:

> حسب الشعر أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها ليكون شعراً أو فنًّا يرضاه الإسلام. وليس من الضروري أن يكون دفاعاً ولا دفعاً؛ ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام ولا تمجيداً

له أو لأيام الإسلام ورجاله[1].

وفي الموضوع ذاته، يتحدّث محمد قطب فيقول:

قد يتحدّث لنا الفنان عن البرعم النابض الذي ينبثق من ضمير الحياة. وقد يتحدّث عن الجبل الشامخ الأشم. قد يتحدث عن نبتة وحيدة في الصحراء. قد يتحدّث عن الليلة المقمرة. قد يتحدّث عن طفلةٍ شريدة. قد يتحدّث عن مواجع البشرية. قد يتحدّث عن ضربة من ضربات القدر. قد يتحدّث عن صراع الناس في الأرض. قد يتحدّث عن بطل أسطوري، قد يتحدّث عن ذلك كله فيكون فنه إسلامياً إذا ما تلقّاه في حسّه بتصوّر الإسلام الصحيح وعبّر عنه بروح ذلك الشعور[2].

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، المجلد الخامس، ص ٢٦٢٢.
(٢) محمد قطب، **منهج الفن الإسلامي**، ص ص ١١٩ ـ ١٢٠.

سورة الشعراء
مكان النزول

لمعرفة كون السورة مكيّة أو مدنيّة من الفائدة ما جعلها من أولويات الباحثين في الدراسات القرآنية، سواء كانوا من المفسّرين أو من المهتمين بعلوم القرآن عامة[1]. إن معرفة مكان النزول تضع أيدينا على ظروف النزول والملابسات التي تحيط به. يقول السيوطي، رحمه الله، «هل من عجب إذا حرّم العلماء المحققون الإقدام على تفسير كتاب الله لمن جهل أسباب النزول؟». ويقول الواحدي، رحمه الله، «لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[2]. ونحن، دون أن نذهب هذا المدى كله نكتفي بالقول مع بنت الشاطىء إن أسباب النزول «لا تعدو أن تكون قرائن مما حول النص»[3]. ولكننا نضيف أن القرائن، أية قرائن، كثيراً ما تكون نوراً ساطعاً يضيء الدرب إلى الحقيقة، أية حقيقة.

---

(١) انظر، على سبيل المثال، الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، وانظر، على سبيل المثال، السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، (بيروت: دار إحياء العلوم ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، الطبعة الأولى.

(٢) انظر العبارتين في صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧١م)، الطبعة العاشرة، ص ١٣٠.

(٣) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢م)، الجزء الأول، ص ٢٣.

ولمعرفة مكان النزول في سورة الشعراء أهمية حاسمة في تفسيرها. كان كل الشعراء المعروفين في مكّة كفّاراً فإذا كانت الآيات مكيّة جاز لنا أن نستنتج أن الذين استمعوا إليها انصرف تفكيرهم إلى هؤلاء الشعراء واعتبروهم المقصودين بالآيات. أما بعد الهجرة فقد كان كل من حول الرسول من الشعراء مؤمنين. فإذا كانت الآيات مدنية ساغ لنا أن نقول إنها نزلت في الشعراء عامة دون حصرهم في الكفّار. فأين كان مكان النزول؟

يجمع العلماء أن سورة الشعراء مكية، أنزلت في الفترة المكيّة الوسطى، أي قبل هجرة النبي ﷺ بقرابة ست أو سبع سنوات[1]. إلا أن طائفة من العلماء ذهبت إلى أن الآيات الأربع الكريمة التي تتحدث عن الشعراء في آخر السورة نزلت في المدينة. ويعلّق محمد أسد على ما ذهب إليه هؤلاء العلماء فيقول: «إن كل الأدلة المتوفّرة تظهر أن السورة نزلت بأكملها في مكة»[2]. ويدلّل الطباطبائي على نزول السورة بأكملها في مكة فيقول:

> وقولهم إنه شاعر مما كانوا يكررونه بألسنتهم بمكة قبل الهجرة يدفعون به الدعوة الحقة، وهذا مما يؤيد نزول الآيات بمكة خلافاً لما قيل إنها نزلت بالمدينة.

ويضيف: «ولا معنى لبقاء سورة هي من أقدم السور المكية سنين على معنى النقص ثم تمامها بالمدينة»[3].

---

(١) انظر Mohammad Asad, *The Message of the Quran*, (Gibraltar: Dar Al Andalus, 1980), p. 560.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، المجلد الخامس عشر، تفسير سورة الشعراء.

وينقل القاسمي، رحمه الله، في **محاسن التأويل** عن المدايني أن السورة بأكملها مكية[١]. ويورد عرفان شهيد عدة قرائن على نزول الآيات بمكة أهمها أنه يصعب أن نتصور تأخر القرآن الكريم في الرد على فرية قريش إلى ما بعد الهجرة[٢]. وفي الموضوع نفسه يقول محمد عزة دروزة معلّقاً على الآيات التي تتحدث عن الشعراء:

> المتبادر أنها نزلت في صدر الردّ على نسبة الشاعرية إلى النبي ﷺ ونزول الشياطين عليه بالقرآن على ما كانت عليه عقيدة العرب وأنها متصلة بالآيات السابقة التي لا خلاف على مكيّتها[٣].

يطمئن القلب مما أسلفناه أن سورة الشعراء بأكملها نزلت في مكة[٤]. نقل عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قوله: (قدم علينا رسول الله ﷺ وما في الأنصار بيت إلاّ وهو يقول الشعر. قيل له «وأنت يا أبا حمزة؟» قال: «وأنا»[٥]. ولنا أن نتصور الهلع الشديد الذي كان

---

(١) محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)، الجزء الثالث عشر، تفسير سورة الشعراء.

(٢) انظر: Irfan Shahid «A Contribution to Koranic Exegesis», in *Arabic and islamic Studies In Honor of Hamilton A.R. Jibb* edit. G. Makdisi, (Leiden: 1965), pp. 563-580.

(٣) انظر محمد عزة دروزة، **التفسير الحديث**، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢ م)، الجزء الثالث، تفسير سورة الشعراء.

(٤) تقتضي الموضوعية أن نذكر أن كلاً من عرفان شهيد ومحمد عزة دروزة يذهب إلى القول إن الآيات الثلاث الأولى التي تتحدث عن الشعراء أنزلت في مكة وإن آية الاستثناء أنزلت في المدينة، فإذا صح هذا القول فإنه لا يغير ما ذهبنا إليه في المتن، فمن المجمع عليه أن الاستثناء يتحدّث عن الشعراء المؤمنين، ولا يتغيّر المعنى بتحقيق نزوله في مكة أو المدينة.

(٥) انظر ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، المجلد الخامس، ص ٢٨٣.

سيعمّ كل بيت من بيوت الأنصار لو كان نزول الآيات في المدينة، هذا الهلع الذي لا تذكر لنا المراجع التاريخية والأدبية أنه قد حدث.

سياق السورة

يصعب، إن لم يستحل، فهم آية أو آيات من القرآن المجيد مفصولة عن سياقها، وفي معزل عن التسلسل المنطقي الفريد الذي يشكّل جزءاً لا يتجزّأ من إعجاز القرآن. لكل سورة في القرآن موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص[1]. وتبين المقصود بأي جزء من السورة يتطلّب الإلمام بهذا المحور الذي يشد السورة من أولها إلى آخرها. ولعله من المؤسف أن قلة من المفسّرين هي التي اهتمت اهتماماً خاصاً بتبيّن الوحدة المنطقية التي تجمع بين السور. وفي هذا المجال لا بدّ أن نشير بالتقدير إلى جهود الفخر الرازي، رحمه الله بين السابقين من المفسّرين، وجهود سيد قطب، رحمه الله، بين المحدثين.

يلخّص الفخر الرازي سياق سورة الشعراء على هذا النحو:

> إنه تعالى ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسول الله ﷺ من الدلائل العقلية ومن أخبار الأنبياء المتقدمين، ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام، ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمداً ﷺ بالكاهن وتارة بالشاعر، ثم إنه تعالى بيّن الفرق بينه وبين الكاهن (أولاً)، ثم بينه وبين الشاعر (ثانياً)[2].

ويلخّص سيد قطب السياق فيذكر أنه يتكوّن من جسم ومقدمة

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، الجزء الأول، ص ٢٨.

(٢) الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، تفسير سورة الشعراء.

وتعقيب. المقدّمة تثبيت وتطمين للنبي ﷺ وتوعّد لكفار قريش الذين كذّبوه. والجسم هو قصص الأنبياء من المتقدمين، تجيء تسلية للنبي ﷺ وتأكيداً لرسالته. ثم يجيء التعقيب الذي:

> يتحدّث عن القرآن فيؤكّد أنه تنزيل من رب العالمين... إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة؛ ويزعمون أنه سحر أو شعر... وما تنزّلت الشياطين بهذا القرآن كما تتنزّل بالأخبار على الكهّان، وما هو كذلك بشعر[1].

يتّضح مما سبق أن الحديث عن الشعراء في السورة الكريمة جاء وهدفه نفي أن يكون النبي ﷺ شاعراً، وأن يكون ما قد أنزل عليه من وحي الشياطين. ولعله من المفيد لفهم الآيات الأربع الكريمة على الوجه الأكمل أن نثبت الجزء الأخير من سورة الشعراء وهو الجزء الذي يتصل اتصالاً مباشراً بالآيات موضع البحث:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ • وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ • إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ • فَلاَ تَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ • وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِينَ • وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ • فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ • وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ • ٱلَّذِي يَرٰيكَ حِينَ تَقُومُ • وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ • إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ • هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ • تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ • يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ • وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ • أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ • وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ • إِلاَّ ٱلَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللهَ كَثِيراً

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، الجزء الخامس، ص ٢٥٨٣.

وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[1].

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢١٠ ـ ٢٢٧.

من هم الشعراء الذين يتّبعهم الغاوون؟

نقلت كتب التفسير عدة روايات في نزول الآيات التي تتحدّث عن الشعراء. فقد وردت رواية تقول: (كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام[1] من الناس ولهذا فئام من الناس فأنزل الله تعالى ﴿**والشعراء يتّبعهم الغاوون**﴾)[2]. وهذه الرواية كما نرى لا تذكر لنا شيئاً يشفي الغليل عن هؤلاء الشعراء، فلا تذكر أسماءهم، ولا ديانتهم، ولا سبب الهجاء ولا موضوعه ولا مكانه.

وهناك رواية أخرى أكثر تفصيلاً تقول: (تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كل واحد منهم غواة من بني قومه فأنزل الله تعالى الآيات). ويعلّق العلامة الألوسي، رحمه الله، مع هذه الرواية بأدب جمّ فيقول: «وفي القلب من صحة الخبر شيء»[3].

وهناك رواية تذهب إلى أنها نزلت في شعراء الأنصار. تقول

---

(١) فئام أي جماعة.

(٢) انظر ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تفسير سورة الشعراء.

(٣) الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تفسير سورة الشعراء.

الرواية إنه لما نزلت الآيات (جاء حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون فقالوا: «قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء» فتلا النبي ﷺ **﴿إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلِموا﴾**)[1]. وعلى هذه الرواية يعلق ابن كثير تعليقاً حاسماً:

> ولكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر. ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم[2].

بقيت الرواية التي يطمئن إلى صحّتها القلب، قلبي أنا على أية حال: (قال عبدالرحمن بن زيد قال رجلٌ لأبي «يا أبا أسامة، هل رأيت قول الله جلّ ثناؤه **﴿والشعراء يتّبعهم الغاون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لايفعلون﴾**؟، فقال: «إنما هذا لشعراء المشركين وليس لشعراء المؤمنين. ألا ترى أنه يقول: **﴿إلاّ الذين ءامنوا وعملوا الصالحات...﴾** فقال «فرّجت عني يا أبا أسامة!»)[3]. أقول: وأنا والله يا أبا أسامة فرّجت عني!

تذهب معظم كتب التفسير إلى أن الآيات نزلت في شعراء الكفار، وتذكر هذا إما كرواية تضمها إلى الروايات التي أشرنا إليها أو كسبب وحيد للنزول. فقد أشار الزمخشري في **الكشاف** إلى «شعراء المشركين». كما وردت الإشارة نفسها في التفسير المنسوب لابن عباس

---

(١) انظر الطبري، **مجمع البيان**، تفسير سورة الشعراء.

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تفسير سورة الشعراء.

(٣) انظر الطبري، **مجمع البيان**، تفسير سورة الشعراء.

رضي الله عنه المسمّى **تنوير المقباس**. وقال النيسابوري في **تفسير غرائب القرآن**: «إنهم شعراء قريش» ويقول الطبري في **مجمع البيان** هم «شعراء الكفار». ويروي البغوي في **معالم التنزيل** أنهم «شعراء الكفّار». ويقول ابن جزي في تفسيره: «شعراء كفار قريش الذين كانوا يؤذون المسلمين بأشعارهم». ويقول الشوكاني في **فتح القدير**: «المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبي ﷺ». ويقول الخازن في **لباب التأويل** وكأنّ الأمر لا يحتمل أي جدال: «قال أهل التفسير: أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون الرسول». ويقول حسنين محمد مخلوف في **صفوة البيان لمعاني القرآن**: «شعراء الكفار الذين كانوا يهجون الرسول ﷺ يقولون الكذب والباطل». ويقول الألوسي في **روح المعاني**: «والظاهر من السياق أنها نزلت للردّ على الكفرة الذين قالوا في القرآن ما قالوا»[1].

فمن هم هؤلاء الشعراء الذين قالت كتب التفسير إنهم «تكلموا بالكذب والباطل»؟ وإنه «اجتمع إليهم غواة قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون محمداً ﷺ ويردّدون عنهم قولهم؟». من هم هؤلاء الشعراء الذين ارتكبوا الجريمة العظمى عندما زعموا «نحن نقول مثلما يقول محمد»[2]؟ من هم هؤلاء الأشخاص الذين لم يكونوا شعراء فحسب ولا كفّاراً فحسب، بل جنّدوا شعرهم تجنيداً تاماً في خدمة كفرهم؟ من هم هؤلاء الشعراء الذين لم يكتفوا بحرب اللسان ـ وما أشد فعاليتها في المجتمع العربي الذي عاشوا فيه ـ بل أضافوا إليها حرب السلاح وحرب المؤامرات؟

---

(١) راجع تفسير سورة الشعراء في كل من الكتب المشار إليها في المتن.

(٢) راجع الخازن، **لباب التأويل**، تفسير سورة الشعراء.

كانوا مجموعة غريبة من البشر حرّكها، أول ما حركها، الحسد، حسد صاحب الرسالة ﷺ، فانطبق عليها قول الشاعر:

كل العداوات قد ترجى مودّتها إلا عداوة من عاداك من حسدِ

كان منهم من حسده على النبوة ذاتها. ومنهم من حسده على مجد النبوة[1]. ومنهم من أعمى الجشع بصيرته. كانوا مجموعة من المغامرين يجمعهم هدف واحد هو محاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم. فمن هم؟!

يتصدّر القائمة، شعراً وخبثاً على حدٍّ سواء **عبدالله بن الزِبْعرى**، الذي وصف بأنه «أشعر قريش قاطبة». وكان من المؤذين لرسول الله ﷺ قام يوماً فأخذ فرثاً وروثاً فلطّخ به وجه النبي ﷺ[2]. وقد كان حادّ العداوة للمسلمين، يتوعدهم بالجولة القادمة إن انتصروا، ويشمت فيهم إن انكسروا، ويهجوهم في كل الأحوال.

قال يرثي قتلى بدر من المشركين:

ماذا على بدرٍ وماذا حوله من فتية بيض الوجوه كرامِ[3]

وقال قصيدته الشامتة المشهورة بعد موقعة أحد:

يا غراب البين أسمعت فَقُلْ إنما تنطقُ شيئاً قد فُعِلْ
كل بؤسٍ ونعيم زائل وبنات الدهر يلعبن بكلْ

(١) انظر حسين مؤنس، **دراسات في السيرة النبوية**، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ص ٢٧.
(٢) انظر جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨م)، الطبعة الثانية، الجزء التاسع، ص ٧٠٦.
(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، (الرياض: وزارة المعارف)، الجزء الثاني، ص ٢٦٥. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

ليت أشياخي ببدر شهدوا   ضجر الخزرج من وقع الأسل[1]

وقال يوم الخندق:

حتى إذا وردوا المدينة وارتدوا   للموت كل مجرّب قضّابِ[2]
شهراً وعشراً قاهرين محمداً   وصحابه في الحرب خير صحابِ
لولا الخنادق غادروا من جمعهم   قتلى لطيرٍ سغّب وذئابِ[3]

وهي القصيدة التي ردّ عليها كعب بن مالك، رضي الله عنه، بقصيدته ذات البيت الطائر:

جاءت سخينة كي تغالب ربّها   وليُغلبن مغالبُ الغلاّبِ

ومن هؤلاء الشعراء **ضرار بن الخطاب الفهري**. وقد قدّمه بعض رواة الشعر على ابن الزبعرى. وكان شديد الطموح، فاتكاً، «جمع من حلفاء قريش ومرّاق كنانة وكان يأكل بهم ويغير ويسبي ويأخذ المال»[4]. وكان من أشجع فرسان قريش وأشدّهم على المسلمين في القتال.

قال في بدر:

عجبت لفخر الأوسِ والحين دائرٌ   عليهم غداً والدهر فيه بصائرُ
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا   فإنّا رجالٌ بعدهم سنغادرُ[5]

(١) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، (الرياض: وزارة المعارف)، السفر الأول، ص ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.(لم يذكر تاريخ الطبعة).
(٢) القضاب: السيف.
(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثاني، ص ٢٦٥.
(٤) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ٢٥١.
(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثاني، ص ٢٦٣.

وقال في يوم أحد:

بـأُحُـدٍ وأسـيـافـنـا فـيـهـمُ تـلـهّـب كـاللـهـب الـمُـوَهـج
غـداة لـقـيناكـم فـي الحديـد كـأسـد الـبـراح فـلـم تعنج[1]

وقال يصف بلاءه في أحد:

قد عوّدوا كل يوم أن تكون لهم ريح القتال وأسلاب الذين لقوا
خيّرتُ نفسيَ على ما كان من رجلٍ منها، وأيقنت أن المجد مستبق
أكرهت مهريَ حتى خاض غمرتهم وبلّه من نجيع عانكٍ علقُ[2]

وقد كان من فرسان معركة الخندق وفيها يقول:

كـأنّـهـم إذا صـالـوا وصـلـنـا بـبـاب الخـنـدقـين مـصـافـحـونـا
أنـاسٌ لا تـرى فـيـهـم رشـيـداً وقـد قـالـوا «ألـسـنـا راشـديـنـا؟»
نـراوحـهـم ونـغـدو كـل يـومٍ عليهم في السلاح مدججينا[3]

ومن هؤلاء **أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب**. ومن غريب أمر هذا الرجل أنه كان ابن عمّ رسول الله ﷺ، وأخاه من الرضاعة، فقد أرضعته حليمة أياماً، وكان تربه ورفيقه. إلا أنه عندما بعث رسول الله ﷺ حسده وعاداه معاداةٍ لم يعادها أحد قطّ وهجاه وهجا أصحابه[4]، وقد سقط أكثر شعره في الجاهلية فلم يصل لنا منه إلا القليل.

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثالث، ص ٧٢، وتعنّج أي تكفّ.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص ص ٧٥ ـ ٧٦ ـ والعانكُ هو الأحمر.
(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثاني، ص ١٥٦.
(٤) ابن تيمية، **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، (الرياض: الحرس الوطني)، ص ١٣٨. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

قال يهجو حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أبوك أبو سوء وخالك مثله ... ولستَ بخير من أبيك وخالكا
وإن أحق الناس ألا تلومه ... على اللؤم من ألفى أباه كذلكا[1]

وقال يشمت بالمسلمين يوم أحد:

شقيتم بها وغيركم أهل ذِكرها ... فوارسُ من أبناء فهر بن مالك
حسبتم جلاد البيض حول بيوتكم ... كأخذكُم في العير أرطالَ آنِك[2]

وإذا كان الشعراء الثلاثة السابقون مدفوعين في عدائهم للرسول ﷺ بالحسد والغيرة، فإن الرابع، **أبو عزة الجمحي**، واسمه عمرو بن عبدالله، لم يكن مدفوعاً إلا بدوافع الطمع. كان فقيراً ذا عيال، وقد أسره المسلمون يوم بدر فذكر حاجته للرسول ﷺ واستعطفه فأطلقه على ألاّ يعين عليه بشعره وأخذ عليه بذلك موثقاً. إلاّ أن لؤمه غلب عليه فما لبث أن قال:

ألا أبلغا عني النبيّ محمّداً ... بأنّك حق والمليك حميدُ
وأنتَ امرؤ تدعو إلى الرشد والتقى ... عليك من الله الكريم شهيدُ
وأنتَ امرؤ بوئتَ فينا مباءةً ... لها درجاتٌ سهلةٌ وصعودُ
وإنك من حاربته لمُحاربٌ ... شقيٌّ... ومن سالمته لسعيدُ
ولكن إذا ذُكرتُ بدراً وأهلها ... تأوّب ما بي حسرة وتعودُ[3]

---

(١) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ٢٥٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٤٩ ـ الآنك هو القصدير، يشير إلى ما سبق أن غنمه المسلمون من قريش وقد عاتبه أبو سفيان بن صخر فقال «لم جعلتها آنك؟ إن كانت لفضة بيضاء جيّدة».

(٣) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤.

فلما كان يوم أحد دعاه صفوان بن أمية الجمحيّ إلى الخروج فقال له «إن محمداً منّ عليّ وعاهدته ألاّ أعين عليه». فما زال به حتى أغراه بالمال فخرج في بني كنانة يحرّضهم:

أيا بني عبد مناة الرُزّامْ[1] أنتم حُماة وأبوكم حامْ
لا تعدوني نصركم بعد العامْ لا تُسلموني لا يَحلّ إسلامْ[2]

ومن هؤلاء الشعراء **هبيرة بن أبي وهب**. وكان من رجال قريش المعدودين. كما كان «شديد العداوة لله ورسوله»[3].

قال يوم أحد:

قالت كنانة «أنّى تذهبون بنا»؟ قُلنا «النخيل» فأمّوها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجرّ[4] من أحدٍ هابت معدٌّ فقلنا «نحن نأتيها»
هابوا ضراباً وطعناً صادقاً خذماً[5] مما يرون وقد ضمت قواصيها[6]

وقال هبيرة يعتذر عن فراره يوم الخندق:

لعمريَ ما وليتُ ظهري محمّداً وأصحابه جبناً ولا خيفة القتل
ولكنني قلّبتُ أمري فلم أجد لسيفي غناءً إن ضربتُ ولا نبلي

---

(١) الرزّام جمع رازم، وهو الرجل الشجاع الذي يثبت مكانه في الحرب.
(٢) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ص ٢٥٤ - ٢٥٥.
(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٥٧.
(٤) الجرّ: أصل الجبل.
(٥) الخذم: المذلّ.
(٦) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثالث، ص ٦٤.

وقفت فلمّا لم أجد لي مقدماً   صددتُ كضرغامٍ هزبر أبي شبل[١]

وقال يرثي عمرو بن ود الذي قتله سيدنا علي بن أبي طالب في معركة الخندق:

لقد علمت عليا لؤي بن غالب   لفارسها عمروٌ إذا ناب نائبُ
فيا لهف نفسي أن عمراً تركته   بيثرب.. لا زالت هناك المصائبُ[٢]

ومن هؤلاء الشعراء **الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي**، أخو أبو جهل وابن عم خالد بن الوليد رضي الله عنه. وكان الحارث قد شهد بدراً مع المشركين وفر عند مقتل أخيه، فَعيِّر بفراره فقال ما عدّه النقّاد من أحسن ما قيل في الاعتذار:

الله يعلم ما تركتُ قتالهم   حتى رموا فرسي بأشقر مُزبَدِ
فعلمتُ أنّي أن أقاتل واحداً   أقتلْ ولا يبكي عدوّي مشهدي
ففررتُ عنهم والأحبّة فيهمُ   طمعاً لهم بعقاب يومٍ مُرصِدِ[٣]

وينسب إليه في بدر قوله:

فإن يك قوم قد مضوا لسبيلهم   وخير المنايا ما يكون من القتلِ
فلا تفرحوا أن تقتلوهم فقتلهم   لكم كائنٌ خُبلاً مقيماً على خُبلِ
فإنّكم لن تبرحوا بعد قتلهم   شتيتاً هواكم غير مجتمعي الشمل[٤]

كما ينسب إليه قوله في رثاء أخيه أبي جهل:

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٦.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٧.
(٣) جواد علي، **المفصل**، الجزء التاسع، ص ٧١٤.
(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثاني، ص ٢٦٣.

فإن يكُ قومٌ صادفوا منك دولة فلا بُدّ للأيام من دول الدهرِ
فقد كنت في صرف الزمان الذي مضى تريهم هواناً منك ذا سبل وُعرِ[1]

ومن هؤلاء الشعراء **أميّة بن أبي الصلْت الثقفي**. وقد كان أميّة هذا شخصية بالغة الغرابة تكتنف حياته الأساطير منذ يوم ميلاده حتى يوم وفاته. كان قد نظر في الكتب ولبس المسوح وتعبّد وحرّم الخمر وتجنّب الأوثان. وكان المؤمّل من رجل هذا شأنه أن يكون من أوائل المؤمنين بالنبي ﷺ. إلا أن الشقاوة غلبت عليه إذ إنه كان يطمع أن يكون هو النبي، فحسد النبي وعادى المسلمين[2].

قال يرثي قتلى المشركين في بدر:

ألاّ بكيت على الكرام بني الكرام أولى الممادحْ
كبكا الحمام على فروع الأيك في الغصن الجوانحْ

ويحرّض على الرسول ﷺ:

لله درّ بني عليّ ايّم منهم وناكحْ
إن لم يغيروا غارة شعواء تحجر كل نابحْ
مرداً على جردٍ إلى أسدٍ مكالبة كوالحْ[3]

ومن هؤلاء الشعراء **عبدالله بن خطل**. وقد بلغ من مقته للنبي ﷺ أن هجاه وأمر قينتين له أن يتغنيا بهذا الهجاء[4].

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثاني، ص ٢٦٣.
(٢) جواد علي، **المفصل**، الجزء التاسع، ص ٧٥٢.
(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثاني، ص ٢٧٢.
(٤) جواد علي، **المفصل**، الجزء التاسع.

ويدخل في حكم هؤلاء الشعراء، وإن لم يكن في الأصل منهم، **كعب بن زهير**. لم يرد اسم كعب في كتب التفسير مع بقية الشعراء الذين أشرنا إليهم ولم يعرف له شعر في هجاء الرسول أو المسلمين قبل قصته المشهورة حين أسلم أخوه بجير فكتب له غاضباً ومعاتباً:

ألا أبلغا عني بُجيراً رسالة   فهل لك فيما قلتُ ويحك هل لكا؟
سقاك بها المأمون كأساً رويّةً   فأنهلك المأمون منها وعلّكا
ففارقت أسباب الهدى واتّبعته   على أي شيء ويب غيرك ذلّكا؟
على خلق لم تلق أما ولا أباً   عليه ولم تعرف عليه أخاً لكا[1]

تقول الرواية أن بجير أطلع الرسول ﷺ على الأبيات فقال «من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله»[2].

ليس بالإمكان أن تكون هذه القائمة عن الشعراء كاملة فمن «الشعراء الذين يتّبعهم الغاوون» من أهمل التاريخ ذكره فلم يصلنا. ومن البديهي ألاّ تعنى كتب التاريخ والأدب إلا بالشعراء المُجيدين دون غيرهم. كما أن اسم **النضر بن الحارث** لم يدخل هذه القائمة، رغم أنه كان أشدّ على النبي ﷺ من أي شاعر من هؤلاء، ورغم أن بعض كتب التفسير تسرد اسمه مع الشعراء الذين تحدثنا عنهم، لأني لم أجد له شعراً في المراجع، ولم أجد من اعتبره شاعراً.

(١) جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، **شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ**، (دمشق: الوكالة العامة للتوزيع، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٣٥.

من هم الغاوون الذين يتبعون الشعراء؟

هذا عن الشعراء، فماذا عن الغاوين الذين يتّبعونهم، أو يتبعونهم إذا قرأنا الآية كما قرأها نافع[1]؟، وردت في تفسير كلمة «الغاوين» عدة أقوال. فقد ورد أنهم الشياطين. وورد أنهم الرواة. وورد أنهم السفهاء. وورد أنهم الكفّار. والكلمة تحتمل هذه الوجوه كلها. إلا أن الوجه الذي نرجّحه هو أن المقصود الشياطين - وهو القول المنسوب إلى قتادة ومجاهد وعكرمة[2]. ونحن نرجّح هذا المعنى مستندين إلى قرائن لغوية وقرائن تاريخية وأهمّ من هذه وتلك، قرائن مستمدة من الكتاب العزيز نفسه.

لنبدأ بالقرائن اللغوية. أورد القاموس المحيط في تفسير الغاوين ما يلي «الشياطين، أو من ضلّ من الناس، أو الذين يحبّون الشاعر إذا هجا قوماً، أو محبّوه لمدحه إياهم بما ليس فيهم»[3] فذكر الشياطين قبل بقية

---

(١) يقول ابن الجوزي «وقرأ نافع يتْبعهم بسكون التاء، والوجهان حسنان يقال تبعتُ واتبعتُ، مثل حقرتُ واحتقرتُ». راجع ابن الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، تفسير سورة الشعراء.

(٢) انظر الطبري، **جامع البيان**، تفسير سورة الشعراء. ما نسب إلى عكرمة هو قوله «عصاة الجن» وهم الشياطين.

(٣) انظر الطاهر أحمد الزاوي، **ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة**، (بيروت: دار الكتب العربية، ١٣٩٩هـ. ١٩٧٩م)، الجزء الثالث، ص ٤٣٠.

المعاني المحتملة للكلمة. وجاء في لسان العرب «الغاوون الشياطين، وقيل الغاوون من الناس»[1] فبدأ بدوره بالشياطين قبل القول الآخر. وجاء في لسان العرب أن غَوى قد تجيء بمعنى أغوى[2] - وبهذا يمكن أن تجيء «الغاوون» والمقصود بها «المغوون».

ومن القرائن اللغوية أن كلمة «تبع» ومشتقاتها قد تستخدم اصطلاحاً لتعبير عن علاقة بين الإنس والجن. يقول لسان العرب:

> والتابعة الرئي من الجن، ألحقوه الهاء للمبالغة أو لتشنيع الأمر أو على إرادة الداهية. والتابعة جنية تتبع الإنسان. وفي الحديث: أول خبر قدم المدينة يعني من هجرة النبي ﷺ امرأة لها تابعٌ من الجن، والتابع ههنا جنيٌّ يتبع المرأة يحبّها والتابعة جنّيةٌ تتبع الرجل تحبّه. وقولهم معه تابعه أي من الجنّ[3].

وقد روى الجاحظ في هذا المجال عن بعض الأعراب:

إني امرؤ تابعني شيطانيهْ   آخيتُه عمري وقد آخنيه[4]

ولو تعمّقنا في تاريخ الشعر في شتّى الحضارات لوجدنا أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الشعر والسحر، وبالتالي بين الشعر والشياطين. تقول دائرة المعارف الإسلامية:

> كان هناك، فيما يتعلق بالشعر، شيء غريب كما تدلّ التسمية. فالشاعر هو الإنسان ذو المعرفة الخارقة، الذي يعلم الأشياء الخافية عن

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر) المجلد الخامس عشر، ص ١٤١. (لم يذكر تاريخ الطبعة).

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد الثامن، ص ٢٩.

(٤) الجاحظ، **الحيوان**، (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٨٥هـ. ١٩٦٦م)، الطبعة الثانية، الجزء السادس، ص ١٨١.

عامة الناس، وكان يستلهم القوى الخفية، وله شيطان يأنس به، ويظهر ذلك أجلى ما يكون في فن الهجاء. وكان هذا الفن في نشأته هجوماً روحياً على الأعداء يؤازر الهجوم الماديّ بالسيوف والحراب ومحاولة لإهلاكهم بقوى خارقة... وهذه علاقة أخرى بين الشعر والسجع، لغة الكهان والسحرة[1].

ويقول جواد علي:

وبين الشعر والسحر صلة، حتى ذهب بعض الباحثين في الشعر إلى أن الشعر فنٌّ من الفنون التي كان يمارسها السحرة في التأثير في مشاعر الناس، إذا كانوا يتخذونه وسيلة من وسائل التأثير في النفوس لما يستعملونه فيه من كلام مؤثر ساحرٍ يترك أثراً خطيراً في نفس سامعيه ولهذا عدّوا السحرة من جملة أوائل من كان ينظم الشعر من القدماء[2].

وفي الجاهلية كان العرب يربطون ربطاً وثيقاً بين الشعر والشياطين. «فهم يزعمون أن مع كل فحل من الشعراء شيطاناً يقول ذلك الفحل على لسانه»[3]. وقد سجّل لنا الموروث الشعبي الجاهلي قائمة طريفة بأسماء هؤلاء الشياطين. فاسم شيطان الأعشى (مسحل بن أوثاثة). واسم شيطان امرىء القيس (لافظ بن لاحظ). واسم شيطان عبيد (هبيد). واسم شيطان النابغة الذبياني (هاذر بن ماذر). كما تجلى هذا الاعتقاد في الموروث الشعبي الشعري.

(١) **دائرة المعارف الإسلامية** (يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس) المجلد الثالث عشر، ص ٣٠٥ (لم يذكر مكان الطبعة ولا تاريخها).

(٢) جواد علي، **المفصل**، الجزء التاسع، ص ٦٩.

(٣) الجاحظ، **الحيوان**، المجلد السادس، ص ٢٥٥.

يقول شاعر:

إني وكل شاعر من البشرْ شيطانه أنثى وشيطاني ذكرْ

ويقول آخر:

إني وإن كنت صغير السنّْ وكان في العين نُبو عنّي
فإن شيطاني أميرُ الجنّْ يذهب بي في الشعر كل فنّ

ويقول غيره:

ولي صاحب من بني الشيصبان فحيناً أقول وحيناً هُوه[1]

بل إن هناك من علّق على بيت عمرو بن كلثوم:

وقد هرّت كلاب الجن منّا وشذّبنا قتادة من يلينا

فزعم أن كلاب الجن هم الشعراء[2] - سامحه الله!

والقرآن الكريم لا يذكر لنا شيئاً عن شياطين الشعر ولكنه يذكر لنا الكثير عن شياطين الغواية والصلة الوثيقة التي تربطهم بالكفار. **﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾**[3]. ولما كان الشعراء الذين نبحثهم من رؤوس الكفر وقادته فليس لنا أن نستغرب أن تكون علاقتهم بالشياطين وطيدة راسخة. وجاء في سورة الأنعام: **﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ ٱلإِنْسِ وَالْجِنّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ**

---

(١) هذا البيت لحسان بن ثابت في جاهليته، يتكلم على صاحب له من الجن. أما بعد إيمانه فقد أعانه الله بروح القدس. ويا للفارق الشاسع بين الموقفين، وهو الفارق نفسه بين الشعراء الكفار الذين يتبعهم الغاوون والشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

(٢) انظر جواد علي، **المفصل**، الجزء التاسع، ص ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

﴿الْقَوْلِ غُرُوراً﴾[1]. وقد روى الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنه أن «زخرف القول» هو «تزيين الباطل بالألسنة»[2]. أوليس هذا ما كان يفعله الشعراء الذين يتّبعهم الغاوون؟ يروي ابن هشام أنه لما أنزلت آية **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾**[3]. قال عبد الله بن الزبعرى: «أكل ما يعبد من دون الله في جهنّم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم عليهما السلام»، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرتهم بعبادته»[4]. وأنزل الله تعالى في ذلك **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾**[5]. وجاء في سورة الأعراف **﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي ءاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾**[6]. وقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم أنها نزلت في أمية بن أبي الصلت[7]، أحد الشعراء موضوع حديثنا.

ولم ترد كلمة الغاوين في القرآن الكريم إلا وهي مرتبطة، على نحو أو آخر، بالشياطين. فالآية الكريمة التي استشهدنا بها قبل لحظة تذكر

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١١٢.
(٢) انظر الطبري، **جامع البيان**، تفسير سورة الأعراف.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٩٨.
(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثاني، ص ٨.
(٥) سورة الأنبياء، الآية ١٠١.
(٦) سورة الأعراف، الآية ١٧٥.
(٧) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير سورة الأعراف.

أن الشيطان تبع الذي انسلخ من الآيات فكان من الغاوين. وجاء في سورة الشعراء ما يقرن الغاوين بجنود إبليس:

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ● وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ● مِنْ دُونِ ٱللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ● فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُنَ ● وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾(١). وجاء في سورة الحجر على لسان رب العزة والجلال موجّهاً خطابه إلى إبليس **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾**(٢). وجاء في سورة الصافات في سياق الجدال بين المشركين والذين أغووهم **﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ● فَحَقَّ قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ● فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾**(٣).

كل هذه القرائن تجعلنا مطمئنين إلى المعنى الذي رجّحناه من تفسير الغاوين بالشياطين(٤). وبهذا المعنى يزول، بحمد الله، الإشكال الذي ألمحت إليه رواية نقلها الطبرسي في **مجمع البيان** «هل رأيتم شاعراً قط يتّبعه أحد»(٥)؟!

(١) سورة الشعراء، الآيات ٩١ ـ ٩٥.

(٢) سورة الحجر، الآية ٤٢،

(٣) سورة الصافات، الآيات ٣٠ ـ ٣٢.

(٤) للمزيد من التفصيل في تفسير الغاوين بالشياطين راجع دراسة عرفان شهيد التي سبقت الإشارة إليها ودراسته الأخرى: Irfan Shahid «Another Contribution to Koranic Exegesis», «The Sura of the Poets», *Journal of Arabic Studies* XIVI, pp. 1-12.

(٥) انظر الطبرسي، **مجمع البيان**، تفسير سورة الشعراء.

ما هي الأودية التي فيها يهيمون؟

وردت كلمة «واد» - بصيغة المفرد والجمع - تسع مرّات في القرآن الكريم غير المرّة التي نحن بصددها. فقد وردت في سورة النازعات: ﴿إِذْ نَادَيهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ المقدَّسِ طُوًى﴾[١]. ووردت في سورة طه ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٢]. ووردت في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾[٣]. ووردت في سورة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[٤]. وجاءت في سورة النمل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[٥]. وجاءت في سورة الفجر: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[٦]. وجاءت في سورة التوبة: ﴿وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً﴾[٧]. وجاءت،

(١) سورة النازعات، الآية ١٦.
(٢) سورة طه، الآية ١٢.
(٣) سورة القصص، الآية ٣٠.
(٤) سورة إبراهيم، الآية ٣٠.
(٥) سورة النمل، الآية ١٨.
(٦) سورة الفجر، الآية ٩.
(٧) سورة التوبة، الآية ١٢١.

بصيغة الجمع، في سورة الرعد: ﴿أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[١]. وفي سورة الأحقاف: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾[٢].

والملاحظ في كل هذه الآيات الكريمة أن كلمة «واد» مستخدمة بمعناها الحرفي المعروف: إلا أن المفسرين ذهبوا إلى أنها جاءت في سورة الشعراء على سبيل المجاز. فماذا يقول المفسّرون عن أودية الشعراء هذه؟

عن ابن عباس، رضي الله عنه، أن المقصود أن الشعراء «في كل لغو يخوضون». وعن مجاهد «في كل فن يفتّنون». وعن قتادة «يمدحون قوماً بباطل ويشتمون قوماً بباطل»[٣]. وروي عن الحسن البصري رحمه الله: «قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها، مرّةً في شتيمة فلان ومرّة في مديحة فلان»[٤]. وقيل: «المراد منه الطرق المختلفة كقولة أنا في واد وأنت في واد»[٥]. وقيل إن المقصود «تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلّة مبالاتهم بالغلو في المنطق»[٦]. ولعل ما يُلخّص هذه الأقوال جميعها هو ما ذهب إليه الخازن من أن المقصود «أودية الكلام»[٧].

وكل هذه الوجوه حسنة ومحتملة. ولكننا يجب ألاّ نغفل المعنى الحرفي لكلمة «واد». فلنتصور إنساناً لا يترك وادياً إلا ليدخل وادياً يخرج

---

(١) سورة الرعد، الآية ١٧.
(٢) سورة الأحقاف، الآية ٢٤.
(٣) الطبري، **جامع البيان**، تفسير سورة الشعراء.
(٤) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تفسير سورة الشعراء.
(٥) الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، تفسير سورة الشعراء.
(٦) الزمخشري، **الكشاف**، تفسير سورة الشعراء.
(٧) الخازن، **لباب التأويل**، تفسير سورة الشعراء.

منه ليدخل ثالثاً في دورة دائمة من الهيمان؟ أليس هذا شأن من تتبعه الشياطين تضله وتؤزّه؟ أليست مأساته شبيهة بمأساة الذي ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَاطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[1]؟ هؤلاء الشعراء لم يضربوا في أودية الكلام فحسب، كما يضرب كل الشعراء مشركين كانوا أو مؤمنين؛ بل ضربوا في أودية الضلال، وهي وقف على من كفر وضاع. وهل هناك صورة للتعبير عن الضلال البعيد أروع من صورة ذلك المسافر في رحلة أبدية من أودية لا نهائية ينبذه واد إلى آخر؟ وهذا حال الذين تغويهم الشياطين: لا تدع لهم هدفاً يسعون إليه، ولا صراطاً مستقيماً يمشون عليه، ولا قبلة يولونها وجوههم، ولا شعاعاً منيراً يضيء الطريق، ولا دليلاً يشرح المسالك. فماذا يبقى أمامهم سوى أن يقطعوا أيامهم ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.

(٧) سورة الأنعام، الآية ٧١.

ماذا يقولون مما لا يفعلون؟

وردت في تفسير الآية الكريمة ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ عدة روايات. فقد جاء أن المقصود أن «أكثر قيلهم باطلٌ وكذبٌ»[١]. وجاء أنهم «يرغّبون في الجود ويرغبون عنه، وينفّرون من البخل ويصرّون عليه»[٢]. وجاء أنهم يجاوزون الحد «حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة وأشحّهم على حاتم»[٣]. ونلاحظ أن كل هذه الأقوال تلفّ وتدور حول محور الكذب. كما نلاحظ أن الآية الكريمة لم تستخدم تعبير الكذب كما استخدمته آية كريمة سابقة في معرض الحديث عن الشياطين والكهّان. بل تحدثت الآية الكريمة عن صفة أخرى وهي أن هؤلاء الشعراء ﴿يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾. ولا يوجد أدقّ من القرآن الكريم في ألفاظه وتعابيره.

ولقد تنبه إلى هذه النقطة ابن عباس رضي الله عنه حين أشار إلى قولهم: «ما لا يقدرون أن يفعلوا»[٤]. كما تنبّه إليها الشيخ محمد الأمين

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، تفسير سورة الشعراء.

(٢) الزمخشري، **الكشاف**، تفسير سورة الشعراء.

(٣) الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، تفسير سورة الشعراء.

(٤) **تنوير المقباس**، تفسير سورة الشعراء.

الشنقيطي فقال[1]: «وهذا الذي ذكره هنا عن الشعراء من أنهم يقولون ما لايفعلون بيّن في آية أخرى أنه من أسباب المقت عنده جلّ وعلا وذلك في قوله تعالى: **﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِـمَ تَقُولُونَ مَالا تَفعَلُونَ ● كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ﴾**[2].

قول الإنسان ما لايفعل خصلة ذميمة والكذب خصلة ذميمة ولكنهما لا يعنيان الشيء ذاته. فإذا وصف أحد امرأة قبيحة بأنها أجمل من القمر فإنه كذب ولكنه لم يقل ما لم يفعل. أمّا إذا وعد إنسان إنساناً آخر أن يسلمه مبلغاً معيناً أول كل شهر ثم نكص عن الوفاء فقد فعل ما يتجاوز الكذب العادي مسبّباً ما لا تحمد عقباه من النتائج. والآية الكريمة لا تتحدّث عن كذب الشعراء ولكنها تتحدث ـ بصفة دقيقة ومحددة ـ عن قولهم ما لا يفعلون. فهل تراها تشير إلى مسلك هؤلاء الشعراء عامة أم تتحدّث عن شيء معيّن بالذات قالوه ولم يفعلوه؟

يجيب عن هذا التساؤل باحث معاصر بذل في دراسة الآيات الأربع الكريمة من الجهد ما لم يبذله باحث قبله أو بعده، فيما اطّلعنا عليه من دراسات، فيؤكد أن القرآن الكريم يشير إلى واقعة محدّدة هي ادّعاء هؤلاء الشعراء أنهم يقولون «مثلما يقول محمدٌ» ـ أي أنهم يستطيعون معارضة القرآن الكريم. يقول عرفان شهيد موضّحاً:

> إن الآية التي تصفهم بعدم القدرة على فعل ما يقولون لايمكن فهمها إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار تحدّي القرآن لمناوئيه بأن يأتوا بمثله. ولقد كان من الطبيعي أن يكون الشعراء هم المجموعة المؤهلة لقبول هذا التحدي إذ لا يمكن تصوّر أي مجموعة أخرى بإمكانها قبولها.

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي، **أضواء البيان**، ص ٣٩٢.

(٢) سورة الصف، الآيتان ٢ و٣.

ويضيف:

> لقد قبل الشعراء التحدي الذي وجهه القرآن ولكنهم فشلوا في أن يأتوا بأي شيء مثل القرآن. وظل القرآن معجزاً. وبقي الشعراء موصومين بوصمتين: وصمة الكفر الذي دفعهم إلى معارضة القرآن، ووصمة العجز عن فعل ما قالوا إنهم سيفعلونه[١].

ونرى أن ما ذهب إليه هذا الباحث لا يخلو من وجاهة. وهو الشرح الوحيد المقبول للعبارة التي نقلتها كتب التفسير على ألسنة هؤلاء الشعراء «نحن نقول مثلما يقول محمد»[٢] لم تبق لنا نتائج محاولاتهم في المراجع لأنها ذهبت أدراج الرياح. كما ذهبت كل محاولة أخرى عبر التاريخ - ولم تحتفظ ذاكرة التاريخ إلا بسطور قليلة نستخدمها للتندّر والتسلية. وسوف يكون هذا شأن من يحاول في المستقبل. يبقى كل هؤلاء محكوماً عليهم بأنهم «يقولون ما لا يفعلون».

---

(١) للمزيد من القرائن والدلائل على ما ذهب إليه عرفان شهيد راجع بحثه، Irfan Shahid, *«Another, Contribution To Koranic Exegesies»*, pp. 1-21.

(٢) انظر الخازن، **لباب التأويل**، تفسير سورة الشعراء.

آية الاستثناء

بعد أن تحدّثت السورة الكريمة في آيات ثلاث عن الشعراء الذين يتّبعهم الغاوون، والذين يهيمون في كل واد، والذين يقولون ما لايفعلون استثنت منهم في الآية الرابعة ﴿**ٱلَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَاظُلِمُوا**﴾. والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن الاستثناء قد جاء ليؤكّد هوية الشعراء موضع الذم. آية الاستثناء تتحدّث عن «الذين آمنوا» ومقتضى ذلك أن الحديث كان عن قوم كافرين. وتضيف «وعملوا الصالحات» ويقتضي ذلك أن الحديث كان عن قوم يعملون السيئات. وتتحدث عن ذكر اللّه كثيراً مما يؤكد أن المذمومين كانوا أبعد ما يكون عن ذكر الله. كما تتحدث الآية عن الانتصار بعد الظلم، ومعناه عدم اللجوء إلى الهجاء إلا دفاعاً عن النفس، ويقتضي ذلك أن المذمومين كانوا سبّاقين مبادرين إلى هجاء الناس وأذاهم.

يسوّغ لنا، بعبارة أخرى، أن نقول إن صياغة الاستثناء جاءت تبين الشروط المطلوبة لقبول الشعراء المشركين في مجتمع المؤمنين، وهذه الشروط على النحو التالي:

ـ أولاً، أن يؤمنوا ـ تكفيراً عن كفرهم السابق.

- ثانياً، أن يعملوا الصالحات - تكفيراً عن أعمالهم الخبيثة الماضية.

- ثالثاً، أن يذكروا الله كثيراً - تكفيراً عن إجرامهم في حقّ الله أيام غوايتهم.

- رابعاً، أن يكون هجاؤهم دفاعاً عن النفس فقط تكفيراً عن مبادرتهم في السابق إلى هجو النبي ﷺ وأذى المسلمين.

ويذهب العلامة ابن كثير إلى معنى قريب من هذا حين يتحدث عن الاستثناء فيقول:

> يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذمّ الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدّم من الكلام السيء...

ويضيف:

> ذكروا الله كثيراً في كلامهم وقيل في شعرهم وكلاهما صحيح مكفرٌ لما سبق[1].

هذا وتذهب عدة روايات إلى أن الاستثناء نزل في شعراء الأنصار[2]. والظاهر أن هذا القول مبنيّ على مذهب الذين رأوا أن الآيات الأربع الكريمة التي تتحدث عن الشعراء أنزلت في المدينة. ونحن لا ننازع في انطباق آية الاستثناء على شعراء الأنصار الذين لا يرتاب مسلم أنهم آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلِموا. وإذا

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تفسير سورة الشعراء.

(٢) انظر، على سبيل المثال، تفسير سورة الشعراء في الطبري، **جامع البيان**، والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**.

كان الاستثناء ينطبق على شعراء المشركين الذين أسلموا فانطباقه على شعراء الأنصار أولى. فقد كان حسان بن ثابت، رضي الله عنه، مسلماً عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة. وقد شهد كعب بن مالك، رضي الله، بيعة العقبة. وقد كان عبدالله بن رواحة رضي الله عنه أحد النقباء ليلة العقبة.

ولنا أن نتذكر أن الله سبحانه وتعالى ذكر للأنصار، وشعراء الأنصار منهم، من الفضل ما يتجاوز الاستثناء من ذمّ موجّه إلى الشعراء المشركين، حين قال جلّ ثناؤه: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفِسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١]. كما أن النبي ﷺ قلّد شعراء الأنصار مفاخر الدهر. فقد قال لكعب بن مالك يوم الخندق «لقد شكرك الله يا كعب»[٢] وقال عن عبدالله بن رواحة «إن أخاً لكم لا يقول الرفث»[٣]، وكان يستشهد بشعره كما سبق أن روينا عن عائشة أم المؤمنين. أما حسان بن ثابت فيكفيه عزّا أن اسمه ارتبط مع اسم النبي ﷺ فلم يعد يذكر اسم حسان إلا ووراءه «شاعر الرسول».

من هنا يرى المفسّرون أن الاستثناء ينطبق على كل شعراء المؤمنين. فابن عباس، رضي الله عنه، يقول إن الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الشعراء، «استثنى المؤمنين منهم»[٤]. ويقول القرطبي، «ثم استثنى

---

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثالث، ص ١٦٢.

(٣) ابن الأثير الجزري، **جامع الأصول**، المجلد الخامس، ص ١٧٣.

(٤) الطبري، **جامع البيان**، تفسير سورة الشعراء.

شعر المؤمنين حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة... ومن كان على طريقهم»[١]. ويقول ابن كثير إن الاستثناء «يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم»[٢]، ويلخّص الموضوع كله ما ذهب إليه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، إذ يقول «بهذا الاستثناء تبيّن أن المذمومين هم شعراء المشركين»[٣].

وتنتهي الآية، والسورة، بقوله تعالى ﴿**وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾، وقد أجمع المفسرون أن المقصود بهذا الوعيد كل الظالمين سواء كانوا من الشعراء المشركين الذين سبق الحديث عنهم - أو غيرهم من المعاندين الجاحدين الذين مرّ ذكرهم في السورة. وفي هذا يقول سيد قطب:

> السورة التي اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم، واستهتارهم بالوعيد واستعجالهم بالعذاب، كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسالات تنتهي بهذا التهديد المخيف الذي يلخّص موضوع السورة وكأنه الإيقاع المخيف المرهوب يتمثل في صور شتى يتمثلها الخيال ويتوقّعها. وتزلزل كيان الظالمين زلزالاً شديداً[٤].

---

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير سورة الشعراء.

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن**، تفسير سورة الشعراء.

(٣) محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، تفسير سورة الشعراء.

(٤) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، الجزء الخامس، ص ٢٦٢٣.

ماذا فعل الله بالشعراء الذين يتبعهم الغاوون؟

قبل أن نتتبع مصائر هؤلاء الشعراء ينبغي أن نتوقف لحظة لنتبيّن طبيعة الجرم الذي ارتكبوه بمقاييس الشريعة وبمقاييس الثقافة التي كانت تسود المجتمع العربي في ذلك الوقت. نفسح المجال لشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، يحدّثنا عن الجرم الشرعي:

> إن سبّ النبي ﷺ تعلّق به عدة حقوق: حق الله سبحانه وتعالى من حيث كفر برسوله وعادى أفضل أولياءه وبارزه بالمحاربة، ومن حيث طعن في كتابه ودينه، فإن صحتهما موقوفة على صحة الرسالة، ومن حيث طعن في ألوهيته فإن الطعن في الرسول طعن في المرسل وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته؛ وتعلّق به حق جميع المؤمنين من هذه الأمة ومن غيرها من الأمم فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصاً أمته فإن قيام أمر دنياهم وآخرتهم به... وتعلّق به حق رسول الله ﷺ من حيث خصوص نفسه فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله... فعلم بذلك أن السبّ فيه من الأذى لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ما ليس في الكفر والمحاربة[1].

يصعب علينا اليوم، إن لم يستحل، أن نتصوّر أثر الهجاء في

---

(١) ابن تيمية، **الصارم المسلول**، ص ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

المجتمع العربي القديم. إن طبيعة هذا المجتمع القبلية، ومكانة الشعر فيه، جعلت الهجاء أشد أسلحة الهجوم فعالية. وفي هذا يقول الجاحظ: «لأمر بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء»[١]. وينصح الجاحظ العقلاء أن يحرصوا كل الحرص على أن يكونوا بمنأى من سهام الهجاء «فيجب على العاقل بعد أن يعرف ميسم الشعر ومضرته أن يتقي لسان أخسّ الشعراء وأجهلهم شعراً بشطر ماله بل ما أمكن من ذلك»[٢]. ويلخص الجاحظ موقف العربي من الشعر إذ يقول إنه لا يعلم في الأرض «بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً»[٣].

ولنا أن نتوقع، في ضوء هذه الجناية العظيمة، أبشع العواقب وأفظعها لهؤلاء الشعراء بعد أن وقعوا الواحد تلو الآخر في يد الإنسان الذي تفننوا في انتقاصه وهجائه وشتمه. ولعل هذه العواقب الوخيمة كانت محتومة لولا أن هذا الإنسان كان محمداً ﷺ، الرجل الذي وصفه ربه عز وجل باللين والرأفة والرحمة. ما الذي حدث في ساعة الانتصار النهائي؟

فلنبدأ بزعيم الشعراء خبثاً وشعراً **عبدالله بن الزبعرى**، يحدثنا ابن سلام أنه «أسلم ومدح النبي ﷺ واعتذر إليه فأحسن»[٤].

ومما قاله في الاعتذار:

يا رسول المليك إن لساني ... راتقٌ فاتقتُ إذ أنا بورُ

إذ إجاري الشيطان في سنن الغيّ ... ومن مال ميله مثبورُ[٥]

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، الجزء الأول، ص ٣٦٤.

(٢) الجاحظ، **الحيوان**، الجزء الخامس، ص ٢٩٤.

(٣) الجاحظ، **الحيوان**، الجزء الرابع، ص ٢٨٣.

(٤) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ٢٤٢.

(٥) ويشهد شاهد من أهلها أن الشعراء يتّبعهم الغاوون!.

آمن اللحم والعظام بما قُلتَ ... فنفسي الفدى وأنت النذيرُ[1]

وقال أيضاً:

سرت الهموم بمنزل السهمِ ... إذ كنّ بين الجلد والعظمِ
ندماً على ما كان من زللٍ ... إذ كنتُ في فتنٍ من الإثمِ
حيران يعمّه في ضلالته ... مستورداً لشرائع الظلمِ
عمةٌ يزينه بنو جمح ... وتوازرتْ فيه بنو سهمِ
فاليوم آمن بعد قسوته ... عظمي، وآمن بعده لحمي[2]

وقال:

منع الرقاء بلابلٌ وهمومُ ... والليل معتلج الرواق بهيمُ
إنّي لمعتذرٌ إليك من الذي ... أسديتُ إذ أنا في الضلال أهيمُ[3]
أيام تأمرني بأغوى خطةٍ ... سهم وتأمرني بها مخزومُ
فأغفر - فدى لك والديّ كلاهما - ... ذنبي... فإنك راحمٌ مرحومُ
مضت العداوة فانقضت أسبابها ... وأتت أواصر بيننا وحلومُ[4]

كانت خاتمته سعيدة رائعة، فقد منحه الرسول ﷺ حُلّة[5]، وشهد كل ما بعد الفتح من المشاهد[6]، رحمه الله.

---

(١) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ٢٤٢.
(٢) القرطبي المالكي، **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، (بيروت: دار الكتاب العربي)، الجزء الثاني، ص ص ٣٠٢ - ٣٠٣. (لم يذكر تاريخ الطبعة).
(٣) ويشهد شاهد من أهلها أن الشعراء في كل وادٍ يهيمون!.
(٤) القرطبي المالكي، **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، الجزء الثاني، ص ٣٠٣.
(٥) ابن حجر، **الإصابة في تميز الصحابة**، (بيروت: دار الكتاب العربي) الجزء الثاني، ص ٣٠٠. (لم يذكر تاريخ الطبعة).
(٦) القرطبي المالكي، **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، الجزء الثاني، ص ٣٠٢.

وماذا كان من أمر **ضرار بن الخطاب الفهري**؟ أسلم بدوره، وعفا عنه النبي ﷺ، وقال يوم الفتح:

يا نبيّ الهدى إليك لجا حيُّ قريش وأنتَ خيرُ لجاءِ
حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم اله السماءِ[1]

ويبدو أن بقية من سلاطة الشعراء بقيت لدى ضرار بعد إسلامه. فقد روي أن الأوس والخزرج اختلفت فيمن كان أشجع يوم أحد فمرّ بهم ضرار بن الخطاب فقالوا «هذا شهدها وهو عالم بها» فبعثوا إليه فتى منهم سأله عن ذلك فقال «لا أدري أوسكم من خزرجكم ولكني زوجتُ يوم أحد منكم أحد عشر رجلاً من الحور العين»[2]. كما قال يوماً لسيدنا أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، «نحن كنا لقريش خيراً منكم، أدخلناهم الجنة وأوردتموهم النار». يشير إلى أن الذين قتلهم الكفار ذهبوا إلى الجنة والذين قتلهم المسلمون ارتحلوا إلى النار. وقد كانت نهاية هذا الفارس الشجاع متمشية مع فروسيته وشجاعته فقد قتل باليمامة شهيداً[3]، رحمه الله.

وماذا كان من أمر **«أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب»**؟ لنستمع إليه يروي القصة بنفسه بعد أن أسلم وأقبل يرجو عفو الرسول ﷺ أثناء الفتح:

فأقبل الناس، رسلاً بعد رسل، فتنحّيتُ فرقاً من أصحابه، فلما طلع في موكبه تصدّيتُ له تلقاء وجهه، فلما ملأ عينيه مني أعرض عني

---

(١) المرجع السابق نفسه، الجزء الثاني، ص ٢٠٢.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ابن حجر، **الإصابة في تميز الصحابة**، الجزء الثاني، ص ٢٠١.

> بوجهه إلى الناحية الأخرى، فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى، فأعرض عني مراراً، فأخذني ما قرب وما بعد، وقلتُ إني مقتولٌ قبل أن أصل إليه... فلما رأى المسلمون إعراض رسول الله ﷺ أعرضوا عني جميعاً، فلقيني ابن أبي قحافة معرضاً عني، ونظرت إلى عمر يغري بي رجلاً من الأنصار... فدخلت على عمي العباس... قال «لا والله لا أكلّمه كلمة فيك أبداً بعد الذي رأيتُ منه ما رأيت حتى أرى وجهاً»... فلقيت عليًا فكلّمته فقال لي مثل ذلك... وجعلت لا ينزل [النبي ﷺ] إلا أنا على بابه ومعي ابني جعفر قائم فلا يراني إلا أعرض عني[1].

ثم استأذنت له أم سلمة، رضي الله عنها، وذكّرت الرسول ﷺ أن ابن عمه فقال «أما ابن عمي فقد هتك عرضي»[2] وأبى أن يأذن له. فقال «والله ليأذنن لي رسول الله ﷺ أو لآخذنّ بيد ابني هذا ثم لنذهبنّ في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً»[3]. فرقّ له الرسول ﷺ وعفا عنه.

قال بعد ذلك:

لعمرك أني حين يومُ أحمل رايةً	لتغلب خيل اللات خيل محمّدِ
كالمدلج الحيران أظلم ليلهُ	فهذا أوانٌ حين أهدي واهتدي
هداني هادٍ غير نفسي وقادني	إلى الله من طرّدتُ كل مُطَّردِ

روي أن الرسول ﷺ، قال، «أنت طردتني كل مطردٍ؟!» كأنه ينكرها، يردد ذلك»[4].

---

(١) ابن تيمية، **الصارم المسلول**، ص ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٤٠.

(٣) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ٢٤٧.

وقال في رثاء الرسول ﷺ:

أرقتُ فبات ليليَ لا يزولُ ... وليل أخي المصيبة فيه طولُ
فأسعدني البكاءُ.. وذاك فيما ... أصيبَ المسلمون به قليلُ
لقد عظُمتْ مصيبتنا وجلّتْ ... عشية قيل قد قُبِضَ الرسولُ
وأضحتْ أرضنا ممّا عراها ... تكاد بها جوانبنا تميلُ
وذاك أحقّ ما سالت عليه ... نفوس الناس، أو كادت تسيلُ
نبيّ كان يجلو الشكّ عنا ... بما يُوحى إليه وما يقولُ
أفاطمَ إن جزعتِ فذاك عذرٌ ... وإن لم تجزعي ذاك السبيلُ

وقد شهد أبو سفيان حنيناً وأبلى فيها بلاءً حسناً، وكان ممن ثبت ولم يفرّ يومئذٍ ولم تفارق يده لجام بغلة الرسول ﷺ. وقد روى أن النبي ﷺ كان يحبه وشهد له بالجنة. ولما حضرته الوفاة قال «لا تبكوا عليّ، فإني لم أنتطف بخطيئةٍ منذ أسلمتُ»[1]. رحمه الله.

وماذا كان من أمر ذلك الشاعر الجشع الناكث للعهد، **أبو عزة الجمحي**؟ لم تكن خاتمته سعيدة كأولئك الذين سبقوه. روي أنه برص بعد أن أسنّ، وكانت قريش تكره الأبرص وتخاف العدوى، فكانوا لا يؤاكلونه ولا يشاربونه حتى عزم على الانتحار[2]. وكنّا قد رأينا أنه خرج مع المشركين يوم أحد يحرّضهم على القتال. وفي أُحُد كانت نهايته. وهناك روايتان تصوّران هذه النهاية. الرواية الأولى أن المسلمين أسروه فقال «يا رسول الله! منّ عليّ» فقال النبي عليه السلام «لا يلسع المؤمن من جحر مرتين. لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدعتُ محمداً مرتين»

---

(١) القرطبي المالكي، **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، الجزء الرابع، ص ٨٤.
(٢) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ٢٥٦.

وأمر بقتله[١]. أما الرواية الثانية فتذهب إلى أنه جُرح أثناء المعركة ومات متأثراً بجراحه، وتنقل هذا الرواية عن ابن جعدبه قوله «ما أسر يوم أحد لا هو ولا غيره ولقد كان المسلمون يومئذٍ في شغل عن الأسر»[٢]. ورغم أن هذه العبارة تتمشّى مع ما نعرفه من حقائق المعركة إلا أن كتب السيرة تكاد تجمع على تأييد الرواية الأولى[٣].

ماذا كان من أمر **هبيرة بن أبي وهب**؟ آثر هذا الشاعر الضّال أن يهيم في أودية الضلال بقية عمره. فقد هرب إلى نجران وبقي فيها. وكانت عنده أم هانيء بنت أبي طالب، واسمها هند، فقال حين بلغه إسلامها:

أشاقتك هندٌ أم أتاكَ سؤالها ... كذاك النوى أسبابها وانفتالُها
وقد أرقتْ في رأس حصن ممنعٍ ... بنجران يسري بعد ليلٍ خيالها
وعاذلةٍ هبّت بليلٍ تلومني ... وتعذلني بالليل ضلّ ضلالُها
وتزعم أني إن أطعتُ عشيرتي ... سأردى وهل يردين إلا زيالُها
فإن كنت قد تابعتِ دينَ محمدٍ ... وعطفت الأرحام منك حبالُها
فكوني على أعلى سحيقٍ بهضبة ... ململمة غبراء يبسٌ بلالُها

وبقي في نجران كافراً إلى أن مات[٤].

---

(١) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ٢٥٥.
(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) على سبيل المثال، انظر ابن سعد **الطبقات الكبرى**، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٨هـ. ١٩٧٨م) المجلد الثاني، ص ٤٣، وانظر ابن حزم، **جوامع السيرة**، (الرياض: وزارة المعارف)، ص ١٧٤. (لم يذكر تاريخ الطبعة). وانظر ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الثالث، ص ٦٣.
(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الرابع، ص ص ٤٦ ـ ٤٧.

وماذا كان من أمر **الحارث بن هشام بن مغيرة المخزومي**؟ هنا نهاية رائعة سعيدة أخرى. أسلم الحارث يوم مكة وحسن إسلامه وخرج في زمن عمر بأهله وماله من مكة إلى الشام فتبعه أهل مكة. فقال «لو استبدلت داراً بدارٍ ما أردت بكم بدلاً ولكنها النقلة إلى الله»[1]. جاهد في الشام وكان يحمل على الكفّار ويرتجز:

إنـي بـربّـي والـنـبـيّ مـؤمـنُ والبعثِ من بعد المماتِ موقنُ

واستمر يجاهد حتى «ختم الله له بخير»[2]، رحمه الله.

وماذا عن الرجل الذي قال عنه النبي ﷺ «كاد يسلم في شعره»[3] **أمية بن أبي الصلت الثقفي**؟ قبل أن نستمع إلى قصة نهايته فلنستمع إلى أسطورة من حياته المليئة بالأساطير تقصها علينا أخته. تقول إن أمية كان نائماً عندما أقبل طائران أبيضان سقط أحدهما على أمية وشق بطنه، وثبت الطائر الآخر على السقف. قال الطائر الأعلى للأسفل «أوعى؟» قال «وعى» قال «أقبل؟» قال «أبى». فردّ عليه قلبه. وطار الطائران. فلما استيقظ سألته أخته إن كان قد أحس شيئاً فأجابها بالنفي. فأخبرته بما حدث. فقال «يا أخيّه! أنا رجلٌ أراد الله به خيراً فلم يقبله»[4].

ولنستمع، الآن، إلى أخته تقصّ علينا مشهد وفاته. تقول إنه نظر إلى السماء ثم قال:

---

(١) ابن حجر، **الإصابة في أسماء الصحابة**، الجزء الأول، ص ٢٩٣.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ابن الأثير الجزري، **جامع الأصول**، الجزء الخامس، ص ١٦٩.

(٤) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ٢٦٦.

لبيكما.. لبيكما ها أنذا لديكما

لا ذو براءة فاعتذر، ولا ذو قوة فانتصر. ثم أغمي عليه. ثم فتح عينه ونظر إلى السماء وقال:

لبيكما.. لبيكما ها أنذا لديكما

لا ذو عشيرة تحميني، ولا ذو مالٍ يفديني، ثم أغمي عليه، ثم فتح عينيه وقال:

لبيكما.. لبيكما ها أنذا لديكما

بالنعم محفود، من الذنب مخضود[١]. ثم أغمي عليه ثم شقّ بصره وقال:

إن تغفِر اللهم تغفر جمّا وأيّ عبد لك ما ألّما

ثم أغمي عليه، ثم أفاق فقال:

ليتني كنتُ قبل ما قد بدا لي في قلال الجبال أرعى الوعولا
كل عيشٍ، وإن تطاول دهراً قصرهُ مرةً إلى أن يزولا

ثم خفت فمات[٢].

لنا أن ننازع في صحة التفاصيل ولكن ليس لنا أن ننازع في أن هذه النهاية الأسطورية أجدر ما تكون بشاعر أسطورة.

ماذا كان من أمر **عبدالله بن خطل**؟ أمر النبي ﷺ يوم فتح مكة

---

(١) محفود أي مخدوم ـ ومخضود أي منقطع الحجة.

(٢) محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، السفر الأول، ص ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

بقتله ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة. وقد وجد بالفعل متعلقاً بأستار الكعبة فأخرج منها وضربت عنقه. يقول ابن اسحاق إن النبي ﷺ أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه الرسول ﷺ مصدّقاً ومعه رجل من الأنصار، وكان معه مولى مسلم، فأمره أن يصنع طعاماً فلما استيقظ وجده لم يصنع شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتدّ مشركاً[1]. ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية على الحادثة فيقول «له ثلاث جرائم مبيحة للدم: قتل النفس، والردة، والهجاء»[2].

وأخيراً، ماذا كان من أمر **كعب بن زهير**؟ لعل قصته أشهر قصص التوبة والأمان في تراثنا، الشعري منه على أية حال. إلا أنها قصة جميلة لا تفقد روعتها بالتكرار ـ فلنلمّ بها هنا إلمامة خاطفة. بلغ زهيراً وعيد الرسول ﷺ فأتى مزينة لتجيره. فأبت عليه ذلك. فضاقت عليه الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان عدوّه فقال هو مقتول. فكتب قصيدته. ثم خرج إلى المدينة فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه مودّة فأتى به إلى المسجد وأشار إلى رسول الله ﷺ. وكان أصحابه، ﷺ، يتحلّقون حوله فيقبل على هؤلاء يحدّثهم ثم يقبل مع هؤلاء فيحدّثهم. فقام إليه حتى جلس بين يديه فوضع يده في يده ثم قال «إن كعبُ بن زهير قد جاءك ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به». قال «نعم»، قال «أنا يا رسول الله كعب بن زهير»[3]. فأمّنه الرسول ﷺ ـ فأنشد:

---

(١) انظر ابن هشام، **السيرة النبوية**، الجزء الرابع، ص ٣٩.

(٢) ابن تيمية، **الصارم المسلول**، ص ١٣٥.

(٣) جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، **شرح قصيدة كعب بن زهير**، ص ٣٦.

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ   مُتيّمٌ إثرها لم يفد مكبولُ

حتى انتهى إلى قوله:

وقال كل خليل كل آملهُ   لا ألفينّك، إنّي عنكَ مشغولُ
فقُلتُ خلّوا سبيلي، لا أبا لكمُ   فكلّ ما وعد الرحمنُ مفعولُ
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ
أنبِئتُ أن رسولَ الله أوعدني   والعفوُ عند رسولِ الله مأمولُ

فلما وصل إلى قوله:

إن الرسولَ لسيفٌ يُستضاءُ بهِ   مهنّدٌ من سُيوفِ اللهِ مسلولُ

رمى عليه النبي ﷺ بردة كانت عليه[1]. ودخلت البردة التاريخ، ودخلت قصيدة البردة، ودخلت معها كل قصيدة نهجت «نهج البردة».

---

(١) جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، **شرح قصيدة كعب بن زهير**، ص ٣٧.

من هو آخر الشعراء
الذين يتبعهم الغاوون؟

من إعجاز القرآن الكريم ومن مظاهر خلوده أنه ينطبق على أحداث اليوم، كما انطبق على أحداث الأمس، كما ينطبق على أحداث الغد. فإذا تحدث القرآن الكريم عن «الذين آمنوا» فهو يتحدث عن المؤمنين في كل زمان ومكان. وإذا تحدث عن «المنافقين في المدينة» ـ سرى ما يقوله على المنافقين في كل مدينة. وإذا تحدث عن الذين «في قلوبهم مرض» كان الحديث عن كل من يعاني قلبه هذا الداء في كل عصر. ليس لنا أن نستغرب، إذن، إن وجدنا ما يقوله القرآن الكريم عن الشعراء الذين يتّبعهم الغاوون ينطبق بحذافيره على شاعر معاصر يتّبعه الغاوون.

هذا الرجل يعرفه الناس جميعاً، فقد شغل الناس جميعاً، ولكنهم لا يعرفونه أنه شاعر بالإضافة إلى كونه روائياً. فهو في روايته **الآيات الشيطانية** يفسح مجالاً واسعاً لشاعر يسمّيه بعل يهجو المسلمين والإسلام. يقول سلمان رشدي على لسان بعل:

أيها الرسول، أعرني رجاءً

أذناً تصغي. إن هوسك بالتوحيد،

أحد أحد أحد، لا يصلح للجاهلية

يعاد إلى مرسله[١]

ويقول على لسان بعل معلّقاً على الهجرة:

أي فكرة

يبدو عليها الإسلام اليوم؟

فكرة مليئة بالخوف

فكرة تهرب بعيداً[٢].

أما أن الشياطين تتّبع هذا الرجل فأمر لا يحتاج بيانه إلى كثير من العناء. فقد اختار لروايته اسم **الآيات الشيطانية** وبدأها بفقرة، هي بمثابة المدخل للرواية، مأخوذة من كتاب عن تاريخ الشيطان، وجعل شخصيتها الرئيسية الشيطان. والشياطين هي التي زيّنت لهذا الرجل شتم محمد ﷺ. فعلى خلاف الشعراء المشركين لم تكن هناك «سهم» أو «مخزوم» وراء الهجوم. ولم تكن ثمة حرب بينه وبين المسلمين أو بينه وبين أحد منهم. لقد فعل فعلته لأن الشيطان اتّبعه فكان من الغاوين.

وهو في كل واد يهيم. فقد ولد في الهند وعاش فيها فترة من الزمن. ثم ألف رواية اسمها **أطفال منتصف الليل** ــ تتحدث عن الصغار الذين ولدوا مع مولد الهند المستقلة وتتبّع مسيرتهم بعد أن كبروا ـ مليئة بالحقد على الهند وعلى كل ما هو هندي. ثم عاشر فترة في الباكستان

---

(١) Messemger, do please lend a careful ear. Your monophilia. Your One One One, ain't for Jahilia Return to sender.

Salman Rushdie, *The Satanic Verses*, (London: Viking, 1988), p. 106.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٢٥.

What kind of idea Does «Submission» seem today one full of fear, An idea that runs away.

وألف رواية اسمها **العار** ينضح كل حرف فيها بالضغينة على الباكستان وعلى كل ما هو باكستاني. ثم عاش في الغرب، يتمسّح بأذياله، فنبذه الغرب ورفض أن يعترف به واحداً من أبنائه، فشتمه كما شتم الآخرين. هو في كل واد يهيم. فلا هو بالشرقي ولا هو بالغربي. ولا هو بالمسلم ولا بالمسيحي. ولا هو بالملحد ولا بالوثني. أما عن هيمانه في أودية الكلام فحدّث ولا حرج. تكاد كتابته أن تكون أحاجي وألغازاً ـ وقد قال كاتب بريطاني عنه، مازحاً، «إنه يستحق القتل في نظري، لا لإساءته إلى الإسلام بل لإساءته إلى اللغة الإنجليزية».

أما كونه يقول ما لا يفعل، فقد كتب روايته ليدحض معجزة النبوة. فغلاف الكتاب يتحدث أن الكتاب معني بصفة مركزية بالنبي «الذي يتلقى وحياً تمتزج فيه الآيات الشيطانية بالربانية». هذا ما قاله ـ فهل فعل ما قال؟ ـ كل ما فعله أنه ألقى بنفسه في وادٍ ضيق جديد يحرسه ليل نهار قومٌ شتمهم، يكرههم ويكرهونه.

ما أشبه الليلة بالبارحة! قالت أم جميل، وهي زوجة أبي لهب، التي نعرفها جميعاً باسمها الذي أطلقه القرآن الكريم عليها، حمالة الحطب، قالت تهجو النبي ﷺ:

مُذمّماً عصينا   وأمره أبينا   ودينه قلينا

فقال عليه الصلاة والسلام «ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش؟ يهجون مذمماً وأنا محمد»[1]. وهذا الشاعر الشيطاني الجديد

---

(١) انظر محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٠هـ. ١٩٨٠م)، الطبعة الأولى، المجلد الثالث، ص ٦٠٨.

عندما أراد شتيمة النبي ﷺ جبن عن استخدام اسمه الحقيقي فرمز إليه بشخصيته سماها «ماهوند» - وهو اسم الشيطان في اللغة الاسكتلندية القديمة. وهكذا جاءت كل قذارات رشدي وبذاءاته منصبّة على الشيطان - وصرف الله الأذى عن رسوله.

لقد رأينا مصير الشعراء المشركين في عهد النبوة فماذا عن مصير هذا الشاعر بعد أن لحق من يملك الحق في العفو بالرفيق الأعلى؟ مصيره من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، غير أننا نعلم مصير شاعره بعل. لقد اختار له سلمان رشدي أن يموت مقتولاً مع كوكبة من المومسات. وعلم هذا الاختيار العجيب عند علماء النفس، وربّما عند الشياطين!.

وبعد:

كانت الصفحات الماضية جهداً متواضعاً لتدبّر أربع آيات كريمة من كتاب الله المجيد، لا أقول فيه إلا ما قاله الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود، رضي الله عنه، «إن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله وبريئان».

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾[1].

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤.

المراجع

باللغة العربية

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير الجزري، **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، (بيروت: مكتبة حلواني، مطبعة الملاح، مطبعة دار البيان، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).
- ابن تيمية، **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، (الرياض: الحرس الوطني، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن جزيّ، **تفسير ابن جزي**، (بيروت: دار الكاتب العربي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- ابن الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير** (بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثامنة، ١٩٨٤م - ١٤٠٤هـ).
- ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة** (بيروت: دار الكاتب العربي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن حزم، **جوامع السيرة**، (الرياض: وزارة المعارف، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثماني**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- ابن عباس، **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، (بيروت: دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع - لم يذكر تاريخ الطبعة).

- ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).
- ابن قتيبة، **تأويل مشكل القرآن**، (القاهرة: دار التراث العربي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- ابن قدامة، **المغني**، (القاهرة: مطبعة العاصمة، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن كثير، **تفسيرالقرآن العظيم**، (بيروت: دار الفكر، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن منظور، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، (الرياض: وزارة المعارف، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- البغوي، **معالم التنزيل**، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- **دائرة المعارف الإسلامية**، (يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس، لم يذكر مكان الطبعة ولا تاريخها).
- الجاحظ، **البيان والتبيين**، (بيروت: محمد فاتح الداية، الطبعة الرابعة، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الجاحظ، **الحيوان**، (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م).
- الجصاص، **أحكام القرآن**، (بيروت: دار الكتاب العربي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، **شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ**، (دمشق: الوكالة العامة للتوزيع، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، (بيروت: دار العلم

للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م).
- حسنين محمد مخلوف، **صفوة البيان لمعاني القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- حسين مؤنس، **دراسات في السيرة النبوية**، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- الخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ - ١٩٨٢م).
- الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (بيروت: دار الشروق، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).
- السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٣٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الشافعي، **كتاب الأم**، (بومبي: أبناء مولوي محمد بن غلام رسول السورتي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الشوكاني، **فتح القدير**، (بيروت: محفوظ العلي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة العاشرة، ١٩٧١م).
- الصنعاني، **المصنف**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، (بيروت: مؤسسة الأعلمي

للمطبوعات، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

- الطاهر أحمد الزاوي، **ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة**، (بيروت: دار الكتب العربية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- الطبري، **جامع البيان في تفسير القرآن**، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، (القاهرة: دار المعارف، الجزء الأول، ١٩٨٢م).
- الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، (طهران: دار الكتب العلمية، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- الفرزدق، **ديوان الفرزدق**، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، (بيروت: دار الكتاب العربي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- القرطبي المالكي، **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، (بيروت: دار الكتاب العربي، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- مكتب التربية العربي لدول الخليج، **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية**، (الرياض: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- محمد الأمين الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، (الطبعة الثانية: ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م - لم يذكر تاريخ الطبعة).
- محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
- محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، (الرياض: وزارة العارف، لم يذكر تاريخ الطبعة).
- محمد سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (القاهرة: مطبعة

السعادة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).

- محمد قطب، **منهج الفن الإسلامي**، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٧م).
- محمد عزة دروزة، **التفسير الحديث**، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م).
- محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م).
- محمد ناصر الدين الألباني، **مختصر صحيح مسلم**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
- محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، (بيروت: دار الكاتب العربي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- المناوي، **فيض القدس شرح الجامع الكبير**، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م).
- النيسابوري، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

باللغة الإنجليزية

- Asad, Mohammad, **The Message of the Quran,** (Gibraltar: Dar Al-Andalus, 1980).
- Rodwell, J.M. **The Koran,** (London: Everyman's Library, 1978).
- Rushdie, Salman, **The Satanic Verses,** (London: Viking, 1988).

- Shahid, Irfan, «A Contribution to Koranic Exegesis», in **Arabic and Islamic Studies in Honor of Hamilton A.R. Jibb,** Edit: G. Makdisi, (Leiden, 1965).
- Another Contribution to Koranic Exegesis, **Journal of Arabic Studies, XIV.**

محتويات الكتاب



«من هم الشعراء الذين يتّبعهم الغاوون» محاولة جادّة لوضع اليد على المفتاح الذي يسهّل تفسير الآيات القرآنية الأربع من سورة الشعراء التي أتت على ذكر الشعراء الذين يتّبعهم الغاوون وفهم مضمونها.

وللإجابة عمّا إذا كانت الآيات الكريمة تجسّد عداءً جليًا للشعر والشعراء جميعاً، أم أنها تتحدّث عن شعراء بعينهم، يستعرض المؤلف موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء، وكذلك موقف السنّة النبويّة المطهّرة والسلف الصالح، وينتهي إلى أن موقف الإسلام لم يتّصف بالعداء والمناهضة للشعر من حيث هو شعر وللشعراء من حيث هم شعراء، وإنما كان المقصود بالآيات الكريمة شعراً كافراً لشعراء كفّار هجوا الرسول وحاربوا الدعوة الإسلامية قولاً وفعلاً.

ISBN 1 85516 895 2

